شمس الأصيل في أمريكا

من أدب الرحلات

د. محمّد الجوّادي

دار الشروق

شمس الأصيل في أمريكا

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة ١٦ شارع حوذاد حسين - عابدين ٢٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٢٢٢
فاكس ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس ٩٣٠٩١ SHROK UN
بيروت ، ص.ب ٨٠٦٤ - عابدين ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
فاكس ٨٦٧٠٥٥ - تلكس ٢٠١٢٥ SHROK

دكتور محمّد الجوّادى

شمس الأصيل في أمريكا

دار الشروق

إهـــداء

إلى روح عاشق النشر ،

الأستاذ محمد المعلم

المثقف العربى العظيم

الغلاف : الفنان محمد حجى

الخطوط : محمود إبراهيم

مقدمة

كان من حظى أن أزور أمريكا عام ١٩٨٣ ؛ وكان من حظى أن أزور أمريكا عام ١٩٩١ ، ولكنى بدأت الزيارتين بنفسيتين مختلفتين ، فقبل الزيارة الأولى كنت فى غاية الشوق إلى زيارة أمريكا وجاءت الفرصة الأولى فى ١٩٧٨ ، ولكنى كنت يومها قد بدأت خطوات السفر إلى الأراضى المقدسة لحج بيت الله، وجاءت الفرصة الثانية فى ١٩٨٣ فلم أتوان * .

كانت دعوة لحضور ندوة عن الشيخوخة والتقدم التكنولوجى لمدة ثلاثة أيام فقط ولكنى انتهزت الفرصة وأثريت الزيارة بعدة برامج خططت لها قبل السفر ثم فى أثناء وجودى فى أمريكا نفسها: و فيما بين ١٩٨٣ و ١٩٩١ جاءتنى الفرصة لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية ولكننى كنت متردداً ربما بأكثر مما كنت متحمساً فيما مضى لزيارة أمريكا.

بل إننى فى إحدى المرات حصلت على تأشيرة الدخول وحجزت تذكرة الطيران ولكنى فى آخر لحظة آثرت البقاء فى القاهرة لاقطع خطوات كبيرة فى عمل تاريخى كبير لم أنته منه بعد ، و فى مرة أخرى كانت أمامى فرصة محددة باليوم لبدء زيارة طبية ذهبية لواحد من أكبر مراكز طب القلب فى أمريكا والعالم ، و لكننى آثرت أن أبقى حتى لا ينفرط عقد ما بذلت من جهد فى رسالة الدكتوراه .

---

* عن هذه الزيارة كتب المؤلف فصلا من كتابه " رحلات شاب مسلم " ، دار الصحوة ، ١٩٨٧ "

وفى آخر ١٩٩٠ كـان علىّ على ما أُبلغت تليفونيـاً وتلغرافيـا أربع مرات فى يومين متتالين أن أتوجه من فورى للكشف الطبى وفى اليوم التالى للسفارة وفى اليوم الثـالث أو الرابـع أستقل الطائرة لأكـون فى جورجيا حيث يُقدر لى أن أقضى ثمانية عشر شهراً فى ظل منحـة السلام التى حصلت عليها لجمع المادة العلمية للدكتوراه .. ولكنى اعتذرت فلم أشأ أن أسـافر لمجرد السفر وبخاصة أننى كنت قد ناقشت رسالة الدكتوراه منذ ثلاثة شـهور.

أحب أن أعترف أننى ظللت متردداً فى قـرار زيـارة أمـريكـا حتى بعـد أن وصلت الطائرة إلى بـاريس ثم إلى نيويـورك ثم صالة مطـار جون هـوبكنز بكليفيـلاند ، سـاعتها كنت أتحرك وقـد تملكنى التردد تماماً بينما أنـا أحمل حقيبتىّ الخفيفتين، وفجأة وجـدت اسمى على لافتـة يحملهـا شـاب وسيم يسألنى هل نذهب لاستـلام الحقائب فقلت لـه ليس لى إلا هاتين ، فحمل عنى إحداهما وخرجنا من صـالة المطار لأجد أمامى مباشرة سيـارة بيضاء طويلة ذات أبـواب ستة كأنها هى سيـارة ريتشارد فى مسلسل فـالكون كـريست .. تمهلت لأتذكر فالكون كريست وأنجيلا وريتشارد وماجى وميلسيا والصينى العجوز ، وبدا كما لـو أننى سأستغرق فى استدعاء ذكـريات.. أو قل إن شيئا من الشرود اعترانى .. وسرعان مـا أفقت لأجد أن حقيبة هذه السيـارة مفتوحة وأن حقيبتىّ قـد استقرتـا هناك وها هـو الشاب الـوسيم يغلق بـاب السيارة ويتقدم إلى الباب الخلفى الأيمن ليفتحه وليدعـونى إلى الركوب ، وينتظر حتى أجلس ثم يتفضل بأن يشـير إلى عشـرة أزرار كهربائيـة فى سقـف السيارة فى متنـاول يدى ويقـول إن هـذه مفاتيح كل شـىء فى هذا الصالـون .. ويغلـق الباب علىّ وينصرف إلى الناحيـة اليسـرى ليفتح بابه ويربط حزامه ويقلع بنا !!.

فى هذه اللحظة فقط بدأت أحس أنه لم يكن ينبغى لى أن أتردد فى مثل هذه الزيارة. أنا أربأ بك عن أن تسارع فتتهمنى بأننى انبهرت حين ركبت الليموزين الأمريكانى .. ولكنى لن ألومك إذا اتهمتنى .. حتى ولو لمت نفسى لو اتهمتنى بهذا .. لى الحق فى أن ألوم نفسى .. ولنفسى الحق فى أن تلومنى.... ولكنى لن ألومك إذا ركبت صالونا دائرياً جميلاً ينظر كل من فيه إلى بعضهم تضغط زراً فيضىء التليفزيون ، وزراً آخر فينضبط التكييف وآخر فيعمل الراديو ، ورابعاً فتنزل ستارة زجاجية بينك وبين السائق فى كابينته بحيث لايسمعك ، و خامساً فتنزل ستارة معدنية سوداء بينك وبين السائق بحيث لا يرى ما تفعل ، وسادساً فتضىء الأضواء الجانبية الهادئة ، وسابعاً فتضىء الأنوار السقفية المبهرة ، وثامنا فتؤمن إغلاق الأبواب عليك ... إلخ . وإلى جوار يدك اليمنى فى باطن باب السيارة الريموت الذى يضبط لك ما تشاء من قنوات التليفزيون وصورته .. إلخ . ومفاتيح قنوات الراديو وأشياء أخرى . ثم هذا الصالون الجميل المسمى بالليموزين يتحرك وكأنه لا يتحرك ويُسرع وكأنه واقف ، ويعبر طرقاً من فوقها طرق ومن تحتها طرق وعن يمينها طرق وعن يسارها طرق ... وبينما الجليد يغطى أرضاً إلى يمينك.. فإن الخضرة تغطى الأرض التى إلى الناحية الأخرى .. والأضواء المبهرة أو الملونة تأتى من بعيد وسرعان ما تخبو ثم تعود .. وهذا هو طريقنا إلى المدينة شأن كل مطار إلى مدينة ـ أحياناً تراه جميلاً حتى لو كان موحشاً ، وأحيانا يكون كطريق باريس أو القاهرة أو بومباى عامراً بكل ما يبعث على الراحة والسعادة ولكن حرارة الجو أو رطوبته ومشقة الطائرة من قبل تجعلك تود لو ينتهى هذا الطريق بزحامه وإشاراته لتعود إلى مشاهدته مرة أخرى! و أحياناً يكون هذا الطريق شيئاً آخر غير الدولة التى هو فيها، كطريق المطار فى نيروبى عاصمة كينيا، و مع أن الطريق من جون هوبكنز إلى كليفيلاند ليس فيه شىء مميز

عن أمريكا التى نعرفهـا جميعاً والتى زرتها من قبل .. إلا أن ترددى فى السفر إلى أمريكا كـان قد قارب التلاشى تماماً حين كنت لا أزال فى هذا الطريق . بل ربما بدأت اليـوم نفسى على تفريطى فى الفـرص المتكررة التى اعتـذرت عنها . وطيلة الفترة التى قضيتهـا بعد ذلك فى أمريكـا.. كنت أعود إلى التردد ، لا لكى أتردد فحسب ولكن لأحكم على نفسى : هل أصبت ؟ أم أخطأت ؟ .. لا أقصد فى هذه المرة فحسب ، و لكن فى المرات الأخرى التى ترددت فيها فى المجىء.

وتعود بى الذكريات إلى أوقـات كثيرة بات فيها كل من حولى مقتنعاً بأننى على وشك الهجرة إلى هـذا البلد! وأنا متعجب من أين جاءهم الاقتنـاع الذى لم أحسه فى نفسى حتى الآن ولو لحظة واحدة! ولم أمهد له أبداً بأى إجراء !!. هل أنا محقٌ فى تعجبى ؟ أم أننى هاجرت من دون أن أدرى ؟

تعالـوا بنا نقرأ هذه الصفحـات المتفرقة لعلنـا نستطيع أن نستكشف معاً الإنسان والمكـان والزمـان .. بل لعلكم تستطيعون أن تكتشفـوا ما لم أستطع استكشافه حتى الآن وإن رأيته بعينىّ ووصفته لكم فى هذه الصفحات!

١١ ابريل ١٩٩١

محمد الجوادى

To: www.al-mostafa.com

الفصل الأول

هل تغيرت أمريكا

(١)

هل تغيرت أمريكا .. هل غيرت أمريكا نظرتها إلى العالم ؟ كنت أتحدث فى عشاء (بالنسبة لى إفطار رمضانى) فى نادى كليفيلاند للتزحلق على الجليد (Cleveland Skating Club) فى اليوم التالى لوفاة الأديب البريطانى جراهام جرين ولا أعرف ما الذى قادنى إلى أن أقول : إنه من الطريف أن جراهام جرين لم يحصل فى الخمسينيات على تأشيرة دخول الولايات المتحدة الأمريكية على أساس تعاطفه مع الاتجاهات الشيوعية وذلك بسبب سياسة المكارثية التى تعتزم أمريكا التخلى عنها نهائياً هذا العام.. ربما .. أردفت ...إن حمى عداوة الشيوعية كانت تنتاب أمريكا فى هذه الفترة . أما اليوم فقد تفضلت إحدى السيدات الحاضرات فروت لى كيف يأتى الروس اليوم إلى أمريكا فى جماعات ، وأنها شخصياً تفاجأ فى المدرسة التى تعمل بها بمجموعة مترابطة من الأطفال الروس جاءوا مع بعضهم ، وقبلتهم المدرسة مع بعضهم أيضاً، ومهدت لهم دروساً تعليمية تهيىء لهم الانخراط فى التعليم الأمريكى بأقصى سرعة .. وسرعان ما ينجح هؤلاء فى الانخراط فى الحياة الأمريكية ..

هؤلاء الـذين جـاءوا وكأنهم لا يعرفـون حرفاً مـن الانجليزيـة على حد تعبير محدثتنا !!. إذن أمريكا لم تتغير، ولكنها لازالت توظف كل ما هو متاح لها فيما هي محتاجة إليه . والحاجة تتغير مع الزمن ، وتغير أمريكا بالتالى فى توظيفها للمتاح فتبدو و كأنها تتغير!!.

وتسألني مزيداً من الإيضاح فدعنى أتحدث معك عن قطاع الطب . تصور أن أى قسم من الأقسام فى أى مستشفى من المستشفيات الأمـريكية استبعد مـن أطبـــــاء هـــــذا القسـم أولئـك الأوروبيين والشرقيين والعـــــرب واللاتينيين(القـادمين من أمريكا الجنـوبية) أى كل أولئك الـذين حصلوا على شهادة المعادلة قبل أن ينخرطـوا فى الطب الأمريكى ، احصر هؤلاء واستبعدهم من العمل فى هذا المستشفى . ستجد أنك ربما تختزل القسم إلى أقل من نصفه وربما إلى أقل من ربعه .. هل سيتوقف القسم . لا . لن يتـوقف فى أمريكا عمل أبداً ولكن مستوى الأداء والامتياز سينخفض بالطبع.

أمريكا ليست بلـد الأمريكيين وحدهم وإنما هى بلد كـل العاملين المجدين المتميـزين ، هكـذا فهـم الأمـريكيـون معنى أمـريكـا منـذ بـدأوا يقيمـون إمبراطوريتهم .. وهكـذا أفهمتهم امبراطوريتهم فيما بعـد من دون أن تتحدث الامبراطوريـة .. إنما يشبون فيجدون بلدهم يتقبل مَنْ يضيف إليـه فيجدون أنفسهم جيلاً بعد جيل حريصين على أن يتقبلوا كل من يؤملون فيه أن يضيف إليهم . و هكذا تتضاءل العنصرية القومية فى أمريكا حتى تصل فى رأى البعض إلى العدم ، وفى رأى البعض الآخر إلى العدم المعدوم [1] .

ولكن أمريكـا فى ذات الوقت ليس بلد كل المهاجـرين ولا كل الطموحين أو كل الشاردين أو الذين يجيئـون من شُذاذ الآفاق . أمريكا بلـد الذين يجيئون لمهمة محددة تحتاجها أمريكا قبل أن يحتاجوها هم .

هل من حقى أن أستطرد لأحكى لك ياسيدى أن بلاداً عربية مرت فى العقدين الأخيرين بالفرصة الكبرى التى تتيح أن تفيد من التجربة الإيجابية التى خاضتها أمريكا حينَ طعَّمت شعبها على النحو الذى طعمته به . والذى لازالت تطعمه به ؟ نعم كان فى وسع بلاد العرب الغنية وهى تستجلب التكنولوجيا العظيمة التى استوردتها أن تتخلى بعض الشىء عن قومياتها المحدودة لتعطى الجنسية الكاملة لأولئك الخبراء والفنيين الذين يديرون حياتها التكنوقراطية بل وأن تغريهم على حمل هذه الجنسية بكل الوسائل التى تملكها ، ساعتها لم يكن من حق أحد أن يفكر بينه وبين نفسه فى أنه هناك فى تلك البلاد إلى حين ، وإنما كانت هذه المجتمعات قادرة على تذويب عدد كبير من الكفاءات الممتازة فى كيان هذه المجتمعات، على نحو ما فعل الأمريكان الأوائل بإخوانهم البريطانيين والألمان والفرنسيين والعرب .. الذين ذهبوا بعدهم بمائة سنة أو مائتين .

كان فى وسع هذه الدول أن تحتفظ وللابد بأربعة آلاف طبيب مصرى من خيرة الأطباء المصريين يصبحون فى خلال عشرين أو ثلاثين عاماً مرتبطين بهذه الدول من جميع النواحى بارتباطات اللسان والمستقبل والماضى والأسرة والاستثمار والولاء ، كما حدث للأوروبيين فى أمريكا ، وأنا أتلفت حولى فأجد الطبيب الفلبينى أو الإيرانى أمريكياً ـ مواطن أمريكى تماماً . بينما أسرته بأكملها فى الفلبين أو إيران ـــ الطبيب المصرى كذلك ـ أسأل إحدى الفتيات عن الملامح البولندية فيها أهى بولندية ؟ .. فتقول : بل أبواها جاءا من بولندا.. هذه الزميلة ولدت فى سالزبورج ولكنها أمريكية فحين ولدت هناك مات أبواها فى طريقهما إلى الولايات المتحدة ، ومديرة التأمين الصحى يوغوسلافية الأب والأم ، ومديرة النشر ألمانية الزوج والأب ، وسكرتيرة قسم الأسنان أيرلندية الأب ألمانية الأم ، وطبيب الأسنان إيطالى الأبوين ، وسكرتيرة

قسم الاوعية الدموية إيطالية الأب أيرلندية الأم ، وزميلتنا الجديدة فى الرعاية المركزة سويدية الأب.

ما أكثر مَنْ هم حولى الآن من الذين لم يُولدوا فى أمريكا ومع ذلك هم أمريكان .. ولكننا فى بعض البلاد العربية وعلى رأسها مصر مصممون على ألا يكون مصرياً إلا من ولد من أبوين مصريين ، وبعد حين سيطور القانون من تلقاء نفسه بالتقادم وبدون حاجة إلى نصوص ليصبح ومن جدين مصريين ثم من سلالة مصرية إلى الجد الرابع !!! ، بل ربما وصل الوضع إلى هذا الحال ! .

(٢)

وأعود للسؤال الذى بدأتُ به هذا الفصل : هل تغيرت أمريكا حين بدأت ترحب بالروس بعد أن كانت ترفض مجرد دخول الأديب البريطانى جراهام جرين لأنه ربما يناصر الشيوعية مع أنه لم ينتم إلى الحزب الشيوعى إلا بضعة أسابيع عابرة !!.

ما أسهل أن يجيب المرء على مثل هذا السؤال بطريقة يجتمع فيها الذكاء والخبث ويقول . بل روسيا هى التى تغيرت ، حين تركت الشيوعية ، وحين تركتها رحبت بها أمريكا .. ولكن المسألة أعمق من هذا بكثير . إن أمريكا بلد مؤسسات وبلد سياسات قبل أن تكون بلد أهواء ، أو علاقات مودة أوتشفى!!

أمريكا تقدر أنها فى حاجة إلى مائة ألف عامل بسيط وإلا فإنها ستعانى تسلط العمال البسطاء ودكتاتوريتهم ، حتى وإن كانت محدودة الأثر .. إذن فلا مانع من أن يغض البوليس الطَرْف عن الذين يقيمون بصفة غير شرعية

ليقومـوا بمثل هذه الأعمال البسيطة . حتى إذا وصلت أمريكـا إلى المرحلة التى تحس فيها أن البطالة تهدد اقتصادها ، عندئذ يفتح البوليس عينيه أو يتظاهر بأنه يفركها وهو يرى هؤلاء المهاجرين المقيمين بصفة غير شرعية .

نفس الأمر فى الطب ـــ ربما أوافقك (وأنا سعيد بالطبع) أن الطب هـو قمة المهن ، وأنه سواء فى أمريكـا أو فى مصر أو بنجلاديش يمثل الطموح الأعظم لما يسمى بطبقة "الكريمة" فى شبـاب الوطن ، نعم . ولكن المسألة فى الطب أعمق من هذا ـ إن الطب يـؤدى وظيفة إنسانية مُلحـة أكثر مما يتحكم فى عنصر من عناصر سيادة الدولة نفسها .. ولهذا فإن طموح أى مجتمع ناجح إلى أن تكون الوظـائف المؤداة فيه على أعلى مستوى لن يمانع فى أن يعطى الفـرصة فى أداء هذه الوظيفة لمن هم أقدر عليها .. فإذا كان الأطباء الأمريكيون قادرين على أن يؤدوا الأداء الأمثل فى سبعين بالمائة من مواقع الخدمات الطبية الحيوية فلا بد من أن تُشغل الثلاثون فى المائة من المواقع الأخـرى بالكفاءات التى ترتفع بها إلى ذات المستويات المأمولة ، وإذا كـان الأطباء الأمريكيون غير قادرين إلا على خمسين فى المائة فلا بد أن يتاح للخمسين فى المائة الأخرى مَنْ هم أقدر عليها.

صحيح أن المجتمع الأمـريكى يتمنى أن يتـولى بنفسـه مـائة فى المائة من المواقع بل ويعمل جـاهـداً على تحقيق هـذا الهدف ، بل وتتيح له الإمكـانـات الموجودة أن يفعل هذا ، بل وإحصاءاته قادرة على أن تقول هذا دون معارضة، ولكن حقيقـة العمل شىء آخـر ، سـأضرب لك مثـلاً بمعمل للقسطـرة يضم عشرين طبيباً أمـريكياً قادرين تمامـاً على أداء مختلف أنواع القساطـر بنجاح والتزام تامين ، ولكن هنـاك إلى جانبهم خمسة من الوافدين المتأمـركين حديثاً يملكون قـدرة على الإضافة إلى هذا المعمل بحيث يتفـوق على معمل آخر ليس فيه هـؤلاء الخمسة ، ربما تتـوفر لهم قدرة أكثـر على الابتكار ، أو التطـوير ،

أوعلى الدراسات ، أو على توفير الوقت أو توفير الإجراءات والخطوات أياً كانت، بل وربما من وجهة نظر اقتصادية بحتة عندهم القدرة على توفير العملاء !! أى تمويل المعمل بالمرضى سواء من خارج أمريكا، أو من داخلها ، ربما تكون عندهم بحكم شخصياتهم قدرة على إيجاد سمعة لهذا المعمل فى الأوساط المحلية داخل امريكا ، أو الدولية خارجها ، ربما تكون عند هؤلاء الرغبة الأكثر تأكيداً فى البقاء فى هذا الموقع لأكثر من عشر سنوات قادمة بينما الأمريكيون الأصليون يتنظرون الفرصة ساعة وراء ساعة للصعود إلى مواقع أكثر أهمية، أو أكثر ربحية ، سواء معامل أخرى أو مناطق أخرى أو رئاسات ، هذه هى بعض العوامل التى تحكم اتخاذ القرار بإدماج المتأمركين الجدد فى مواقع ممتازه ، ربما لايحلم بها الأمريكى حفيد الأمريكيين ، ولكن الأمريكى الذى يتخذ القرار يفعل كما يفعل أجداده الأمريكان من قبل حين كانوا ينسون مسألة الأبوين المصريين !!

وهذه هى روح أمريكا وإذا فقدت أمريكا هذه الروح فلن تكون هناك امريكا، لن تكون أمريكا فى ذلك الوقت مشكلة نتحدث عنها فحسب ، وإنما سوف تكون عدماً ليس هناك من داع للحديث عنه .. إلا عن وجوده الذى سبق العدم .

ربما تستغرب منى ياسيدى هذه القسوة فى التعبير وتظنها شططاً للقلم ولكنها الحقيقة . تسألنى وأين تذهب قوة الدفع يومها ؟ ألا تستطيع قوة الدفع هذه أن تنقذ أمريكا عشرين عاماً أو ثلاثين حتى تعود إلى رشدها؟ وتستأنف توظيف أجناس الأرض فى خدمة تقدم أمريكا؟ .. أقول لك لا . لن تستمر هذه القوة أبداً كما تظن .. لأن أمريكا فى تقدمها تطير ، تحلق بعيداً عن كل ما يخلد بالإنسان إلى الأرض حين يتبع هواه.. قوة الدفع هذه تنقذ السيارات أو المجتمعات التى تسير . ولكنها لا تنقذ الطائرة أبداً !!

وتسألني كيف يحدث ذلك ؟ أقـول لك هل رأيت النـاس الذين يجيـدون السباحة يتدافعون للقفز من القارب الموشك على الغرق فيعجل تدافعهم بغرق القارب .. تماماً هذا هو الوضع الحالى فى أمريكا ، إذا أحس ناجحوها أن الكيان الأمريكي افتقد روح الإمتياز والتميز ، وبات يخلد إلى الماضى بلا عمل ساعتئذ سرعان ما سيتدافع هؤلاء الناجحون إلى ترك أمريكا تغرق بالمخلدين فيها.

لك أن تتصـور أننى فى تفكيرى هـذا شبيـه بأديب محلق ، ولكن المجتمع الأمريكي نفسه يعرف معنى ما أقول ، ويراه بعينه كل يوم حين يجد الشركات والمؤسسات الفاشلة تغلق أبوابها وينتشر الذين كـانوا فيها ليبدأوا "أمريكا" من جديد !!.

(٣)

شاهدت فى التليفزيون الأمـريكى لقطات غير متتابعة (بسبب انشغالى عن متابعتها بعض الأيام) عن قضية أقامها بعض الموظفين الأمريكيين ضد شركة يابانية كبيرة فصلتهم من عملهم بإجراءات قـانونية سليمة فى الشكل طبعاً ـ يتهمونها فيها بالظلم والتحيز لليابانيين . تسألنى هل كانت الحلقات مُوجهة ؟ أقول لك نعم .. ولكنهـا كانت موجهة ضـد هؤلاء الأمريكان . أيما كـان الأمر وانتصر المحامون لهـذا الطـرف أو ذاك فمن الواضح جداً أن الشركـة كـانت على حق .

لا شك أن الدفـاع عن الأمريكيين كـان ممتازاً ، وقـد استطاع محاميهم أن يحرج ممثل الشركة اليابـانية مرة تلو مرة ، ولكن الحقيقـة التى قدمها العمل الفنى كانت أن هـؤلاء المفصولين يبتزون الشركـة اليابانيـة . أنا لا أعلم كيف انتهى العمل الفنى على شاشة التليفزيون . ولا أعلم الهدف الذى كان وراء هذا

المسلسل ولا أعلم من الذى أنتج العمل . ولكنى أشهد لك شهادة لوجه الله أن كمية الصدق الفنى فى العمل كانت خير ما فى العمل كله . ربما ترك العمل الفنى فى نفسك أنه ضد الأمريكيين .. ولكن الحقيقة التى لا بد أنك ستدركها بعد برهة قصيرة أن العمل الفنى كان يهدف إلى مصلحة الأمريكيين لأنه كان يوقظهم لا أقول من النوم ، ولكن من حلم بسيط من أحلام اليقظة المستمرة التى كاد انتباهها يضيع، ولا أقول ضاع منها انتباهها .

وأعود لأتحسر على مسلسلات التليفزيون العربى وأقول .. «هكذا ينبغى أن يكون الفن» أو على الأقل .. هكذا ينبغى أن يكون بعض الفن لكى يبقى بعض آخر للإمتاع ، وبعض آخر للمؤانسة ، وبعض آخر للفن نفسه! .

أريد بعد كل هذا الحديث أن أنقل لك عبارة قرأتها الآن وبعد كتابة هذا الحديث بشهر أو أكثر تؤكد هذا المعنى ، الذى سوف أقوله : « إن أمريكا ليست لأحد» ، العبارة منسوبة إلى أحد قضاة محكمة الإستئناف فى كاليفورنيا واسمه "رينوسو" (Renoso) وهو أحد الذين تولوا وضع سياسة الهجرة إلى أمريكا ، وهو يتحدث فيها عن وحدة الشعب الأمريكى فيقول : « ما كان الأمريكيون اليوم ..وما كانوا فى أى يوم من الأيام أمة واحدة لغوياً أو عقائدياً.. إن أمريكا وحدة سياسية فحسب ، وليست وحدة ثقافية أو لغوية أو دينية أو قومية » .

(٤)

هل الأمريكيون مُرْهَقون أم مُرفهون ؟ هل يعمل الأمريكيون أكثر مما يستمتعون بحياتهم ؟ أم هم يستمتعون بحياتهم أكثر مما يعملون؟ أم هم يوازنون بين المتعة والإجهاد فى كفتى الميزان ؟ ربما يكون حكمى مجانباً الصواب لأنى سأتحدث عن طائفة الأطباء وهى طائفة يصدق عليها الوصف

القائل إنها محترفةٌ عمل أو محترقةٌ عملاً فى كل مكان سواء فى أمريكا أو فى مصر .. وحتى إذا تحدثت عن الممرضات أو السكرتيرات الطبيبات فإنى أتحدث عن نفس المجال تقريباً ، فالعاملون فى المهن الطبية الموازية أو المساعدة يكتسبون مع الوقت قسوة الأطباء على أنفسهم ، ولكنى مع هذا كله وفى هذه النقطة بالذات أستطيع أن أقول لك إن المجتمع الأمريكى قد استطاع أن يجبر الأطباء على بعض الراحة . تسألنى كيف حدث هذا ؟ فأعطيك بعض الأمثلة لبعض الوسائل التى نفذ بها المجتمع سياسته غير المنظورة .

الوسيلة الأولى أن عطلة نهاية الأسبوع السبت والأحد مقدسة تماماً ، مع أن الطب لا يتوقف عن العمل كما هو معروف ولا بد من أن يكون من بين الأطباء نوبتجى فى المستشفى .. وفى ظل أن العمل فى عطلة نهاية الأسبوع إجبارى ومحدد لكل طبيب كل عدة أسابيع فقد أصبح الأطباء بالتالى يستمتعون بالعطلات الأخرى المتاحة لهم ، أى أنهم أصبحوا يفقدون عطلة ليستمتعوا بثلاث عطلات .. بعد أن كانوا يرتبطون بالعمل ربع الوقت مثلاً أو عشر الوقت فى نهايات الأسابيع .. وأحب فى هذا المجال أن أضرب مثلاً بنفسى ، فلم يحدث أننى فى حياتى عرفت نظاماً محدداً للراحة يوم الخميس والجمعة إلا فى الشهور التسعة التى كنا فيها ثلاثة نواب فقط فى قسم القلب بطب الزقازيق وكان على كل منا أن يتولى أمر الخميس والجمعة كل ثلاثة أسابيع... بالنسبة لى كنت أقضى عطلة فى النوبتجية ، وعطلة فى القاهرة الثقافية ... وعطلة ثالثة بعيدا عن القاهرة، وظللت منتظماً على هذا الحال طيلة تلك الشهور التسعة ، ولم اتمكن أبداً من أن امضى على هذا النحو المنظم بعد ذلك !.

عذراً نعود إلى الأمريكيين فنجد أن عمل الفريق يُجبرهم على العمل فى أوقات محددة إذ ليس الفريق متاحاً فى كل حين ، بل يصعب تماماً تشغيله فى

غير أوقـاته .. وهكـذا أصبح على الأطباء الـذين يمارسـون تقنيات معينـة أن يعرفوا أن الساعات الأربع والعشرين التـى يعطيها الله لنـا كل صباح ليست للعمل المتواصـل ، وإنما هى لأشياء كثيرة منهـا العمل الـذى تحدد وقتـه بالدقيقة من قبل لأنه مرتبط بفريق كامل .

الوسيلـة الثانية التى استطـاع بها المجتمع الامريكى أن يبعـد الأطباء عن العمل القـاتل هى الخروج بالأطبـاء من أمـاكن عملهم من حين لآخر وبكثـرة ربما تقول عنهـا إنها فاقت المعقـول أو المطلوب . فالنـدوات دائماً فى الفنادق، والمؤتمرات الدوريـة دائماً فى أماكن متبـاعدة ، وكـل عام تعقد جمعيـة القلب الأمريكيـة ندوتها فى مكـان غير الذى عقـدت فيه نـدوتها السـابقـة ، والمؤتمر أسبـوع كـامل الاشتراك فيـه شبه إجبـارى وهـذا لا يعنى أن جميع الأطبـاء يـدفعون الاشتراك . والأطبـاء فيـه متوقفـون عن العمل فى مستشفيـاتهم إلا لحالات الطوارىء التى يقوم بها حوالى ١٠٪ فقط من القـوة البشرية المتاحة.. وكلية أطباء القلب هى الأخرى لها أسبوع آخـر ، ربما أنتهز هذه الفرصة الآن لأحدثك عن النشـاط العلمى المفروض على أطباء القلب ولعلك لاحظت فى الفقرة السـابقـة أن هناك جمعيتين علميتين : جمعيـة أطباء القلب الامـريكيين والكلية الامـريكيـة لاطباء القلـب. هذا غير جمعيـات ضغط الـدم ، وأختـلال النظم ، والفسيولـوجيا الكهـربية ، والمهمازات والموجـات فوق الصـوتية والتصـوير الصبغى ، والرنين المغنـاطيسى ... الخ الخ) فإذا كـان الطبيب مهتماً بمجالين فقط من هذه المجـالات العشرة إلى حد انـه يشارك فى اجتماعـاتها ومؤتمراتها فإنـه مجبر على أن يترك العمل الـروتينى إلى أمـاكن بعيـدة عن بيتـه وعن مستشفاه لأربعة أسابيع على الأقل كل عام .

ولكنى مع هذا أعتقد أن هناك من الـوسائل ما هو قادر فى المستقبل على أن يمنع الأطباء من قتل أنفسهم ، أعتقد مثلاً أن ثقـافة الأبناء فى الأجيال الجديدة

كفيلة بجذب آبائهم معهم إلى المتاحف والأوبرا والمسرح والسينما حينما يزداد رقى هذه الفنون و ابتعادها عن التكرار وحرصها على الفن الرفيع والتجديد والإبتكار حتى تحتفظ لنفسها بمكان فى عصر الفيديو والكمبيوتر، أحب أن أقول إن الأجيال الجديدة محظوظة تماماً أو سوف تكون كذلك بعد ضياع الأجيال التى مرت بالبشرية طيلة النصف الثانى من القرن العشرين .. وأحب أن أسجل من الآن ما بدأت ألحظه تحت الرماد من أن هذه الأجيال سوف تكون قادرة على توجيه الأجيال السابقة عليها إلى كثير من أنماط السعادة والرقى . اعتقد كذلك أن التطوير الرائد فى مناهج الدراسة والتزايد المستمر فى إقبال المهنيين والمشتغلين بالعلوم المختلفة على الإنسانيات سوف يُفسح المجال لإنسان أكثر رقياً، وبالتالى لطبيب أكثر إنسانية مع نفسه . واعتقد أن وسائل الإعلام جميعاً ستفقد مع الزمن الحمى التى تفرض عليها السطحية والإثارة وستكون فى المستقبل حريصة على الهدوء والرؤية والتعمق وسوف يتاثر بها الناس أيضاً . و اعتقد أيضاً أن الحاجة الملحة إلى كثير من الإنفاق وكثير من العمل من أجل تدعيم وتوسيع قواعد الأصول الثابتة فى المؤسسات الصحية والطبية على مستوى القطاعين الجماعى والفردى ـ أعتقد أن هذه الحاجة سوف تخف بعض الشىء بما سوف يكون متاحاً ومتراكماً من أصول ثابتة ضخمة أنفق القرن العشرين معظم أرباحه على بنائها أو تسديد ديونها .

(٥)

أحب أن أحدثك بعد هذا كله عن ثراء الأمريكيين . هل زاد ثراؤهم أم أنهم كما يحب الناس فى بلدى أن يتصوروهم بدأوا يعانون المعاناة التى تنتهى (بعد عمر طويل) بالفقر .

لو كنت زرت أمـريكا فى ١٩٥١ أو ١٩٦١ أو ١٩٧١أو ١٩٨١ ثم زرتها فى ١٩٩١ فسوف تحس أن أمريكا أصبحت حـذرة فى إنفاقها ، وأصبحت تشكو بصوت مرتفع من أنها لا يجب أن تنفق على هذا البند مثلاً كل هذا الإنفاق ، أو أن التأمين الصحى غير قادر على تغطية نفقات علاج ٣٨ مليون أمريكى، او أن معظم نفقات الإدارة الأمريكية يمكن اختصارها احتياطاً للمستقبل .. لن تنجو من أن تطالع هذه الأفكار صباح مساء كل يـوم فى كل جريدة وكل تقرير تطلع عليه ، ولن تنجو أيضا من سماع هذه العبارات فى دردشتك مع الأمريكان أينما كـانوا ، ومع كـل هذا تتأمل ثـروة الأمـريكى فتراهـا تزداد يـومـاً بعد يـوم ، وتتضخم ، ترتفع الـودائع فى بنوكهم كما لم يسبق لها أن تـرتفع ، وأصولهم الثابتة تتضـاعف بما لا يحتاج إلى إحصاء ، وأكثر من هـذا فإن الدولار أصبح يمثل بالنسبة للاقتصاد العالمى أكبر بكثير مما كان يمثل فيما مضى ، ولك أن تقارن بين سعر الدولار اليوم بالنسبة لأى عملـة ، وبالنسبة لذات العملة منذ عشر سنوات فإذا أنت تجد الدولار هو الـرابح .. وحتى فى الأحوال القليلة التى ينهار فيها الدولار أمام عملة أخرى فإن الدولار وأصـحاب الدولار يفعلون هذا من أجل عيـون الدولار .. يغرون أثـرياء منطقـة ما حتى يحولـوا أموالهم إلى الدولارات بما يقدمـون عليه من رفع سعر الفائدة ومـا إلى ذلك من المغريات ، ويدعمـون الدولار حتى لا يكف عن الارتفـاع حتى إذا وصلوا إلى نقطـة ما لا يعرفها سوى خالقهم هبطوا به فجأة فهبطوا بكل قيم الأشياء التى تحولت إلى دولار ، وهم المستفيدون فقط .. لأنهم حصلـوا على كل ما يـريدون بـالدولار العالى .. ثم أصبح الدولار فى أيـدى الناس من حولهم رخيصاً !!. غايـة ما أريد أن أقوله لك هـو أن الأمريكان أصبحوا اليـوم أكثر وعياً فى إنفاقهم ممـا كانوا عليه من ذى قبل.. أريد أن أقول لك ذلك حتى أصحح لك ما قد يترامى إلى ظنك من أنهم أصبحوا أقل ثروة عما كانوا عليه من قبل !!!.

(٦)

دعنى الآن أحدثك عن كتاب شيق أتيح لى أن أطالعه هذا الأسبوع ولكن لابأس أن ألخص لك الفكرة التى فيه . الكتاب اسمه ـــ (الأجيال . تاريخ مستقبل أمريكا ١٥٨٤ ـــ ٢٠٦٩) Generations : The History of America's Future(1584 - 2069) المؤلفان هما شتراوس (٤٤ عاماً)ـ ونيل هوى (٣٩ عاما) والكتاب صدر عن دار نشر Monow ويباع بحوالى ثلاثة وعشرين دولاراً، وتتلخص الفكرة التى عمد إليها المؤلفان أنهم قسموا أجيال أمريكا إلى ثمانية عشر جيلاً وذلك بأن جعلوا الجيل الواحد ٢٢ عاماً ـ (معلوماتى السابقة أن بعض علماء الاجتماع اعتمدوا ٣٣ عاماً فى المتوسط بحيث يصبح القرن ممثلاً لثلاثة أجيال) ، ولم يصنفوا الناس حسب انجازاتهم وتواريخها ، ولكنهم أخذوا الزعماء والبارزين بتواريخ ميلادهم ـ هل تعرف ماذا يعنى هذا ؟ أبسط لك الأمور وأضرب لك بمصر مثلاً كنت كثيراً ما استعمله لإثارة لمحات المقارنة الصحيحة فى حديثى السياسى مع بعض من تحدثت إليهم ، ولا أذكر إن كنت قد سجلت هذه الفكرة فى مقال أو كتاب لى من قبل أم لا ، كنت أقول إن مصر حُكمت طيلة الفترة من ١٩٣٦ وحتى ١٩٨١ (حوالى نصف قرن) بثلاثة من مواليد ثلاث سنوات متتالية ـ فقد ولد الملك فاروق فى ١٩٢٠ ، و ولد عبد الناصر فى ١٩١٨ ، و ولد أنور السادات فى ١٩١٩ (فى بعض الأقوال فى ١٩١٨) كنت أورد هذا القول فى التدليل على عدة معان :أولاً : أن رجال الثورة لم يكونوا صغار السن حين تولوا الحكم فقد سبقهم إليه ومنذ ١٥ عاماً ملك أصغر منهم فى السن كان فى كثير من الأحوال حريص على أن يحكم لأنه يملك ثانياً : إن الحكمة الزائدة التى تميز بها أنور السادات كانت تعتمد ضمن ماتعتمد على عامل السن إذا ما قورن بعبد الناصر أو بفارق السن (مع عدم إغفال الجوانب الشخصية فى كل منهم جميعاً) ما علينا من هذا الاستطراد الذى يجب أن أعتذر عنه وهأنذا أعتذر!!

شتراوس و هوى ياسيدى يذهبون إلى أبعد مما أذهب بكثير جداً ، إنهم يقسمون الأمريكان منذ ١٥٨٤ وحتى اوائل القرن الحادى والعشرين إلى ثمانية عشر جيلاً لكل جيل ميزة واسماً مميزاً ويأخذون لكل جيل شخصاً من المشاهير الذين ولدوا فى الفترة الزمنية التى حددوها للجيل ليجعلونه «العينة» ـ عينة الجيل ـ إلى هنا والأمر بسيط أو قل إنه بسيط.

لكن شتراوس و هوى ينظران إلى الأمور من زاوية أخرى هى زاوية ما نقول عنه الدورات ـ أو ما قاله مؤرخ عظيم ملخصاً فلسفته فى التاريخ ـ من أن التاريخ يعيد نفسه . و هكذا فإن المؤلفين يضعان كل أربعة أجيال فى دورة وتتعاقب الدورات ـــ فالدورة الواحدة على هذا تضم أربعة أجيال الأول هو جيل **المثاليين** ثم يليهم جيل **الفاعلين** ويليهم جيل **المدنيين** وتنتهى الدورة بجيل **المتأقلمين** لتبدأ بعد ذلك دورة جديدة تبدأ بالمثاليين ثم الفاعلين ثم المدنيين ثم المتأقلمين .. دعنى ألخص لك الدورات والأجيال وصفات الأجيال وعينات هذه الأجيال خلال الصفحتين الآتيتين :

الدورة الأولى : المستعمرون Colonial ولك أن تترجمها بالاستعماريين، أو سكان المستعمرات والدورة الثانية دورة الثورة ، والدورة الثالثة دورة الحرب الأهلية ، والدورة الرابعة دورة القوة العظمى والدورة الخامسة هى الدورة التى نعيشها الآن !!

فلنبدأ بالدورة الأولى ، فى هذه الدورة وهى التى تضم بالطبع أربعة أجيال الجيل الأول هو جيل البيوريتان Puritan والبوريتان كما نعلم هم القوم الحريصون على التطهر من كل الأدران والخطايا إلى حد التزمت ، وفى الأدب العالمى نقرأ هذه العبارة فى وصف بعض مجتمعات أو أشخاص العصور الوسطى ـ هؤلاء بالطبع مثاليون ـ وهم بداية الدورة وهؤلاء يمثلون مواليد الفترة من (١٥٨٤ ـ ١٦١٤) وعينة هؤلاء : جون وناتروب .

الجيل الثانى (١٦١٥ ـ ١٦٤٧) جيل الفرسان Cavalier هؤلاء بالطبع وكما يتضح حتى من تسميتهم فاعلون إيجابيون ـ وعينة هؤلاء هو انكريز ماذر وسوف أحدثك عنه بعد قليل .

الجيل الثالث (١٦٤٨ ـ ١٦٧٣) جيل المتألقين Glorious وهؤلاء بالطبع وكما يتضح من اسم جيلهم يمثلون المرحلة الثالثة من الدورة الأولى ، وصفتهم بالطبع أنهم مدنيون ، وعينة هؤلاء هو كوتون ماذر وهو ابن انكريز وسوف أحدثك عنه وعن أبيه وجده بعد قليل . والجيل الرابع (١٦٧٤ ـ ١٧٠٠) هو جيل التنويرEnlightenment وهم قوم متأقلمون يمثلهم وليام شيرى .

دعنى أحدثك عن أقطاب هذه الدورة الأولى وسأبدأ بالحديث عن العائلة التى تضم قطبين هما قطبا الجيلين الثانى والثالث فى الدورة الأولى . عائلة ماذر هذه تمثل عصراً كان فيه رعاة الكنيسة فى مساتشوستس هم القادة فى الحياة العامة والعقلية . أما ريتشارد ماذر (١٥٩٦ ـ ١٦٦٩) فقد ولد فى لانشستر بإنجلترا وتعلم فى أكسفورد، وسببت له أفكاره البيورتانية مصاعب مع الكنيسة الإنجليزية مما أبعده عن تولى المسئولية ، وقد ترك إنجلترا فى ١٦٣٥ وبدأ حياة جديدة فى مساتشوستس ومنذ ١٦٣٦ وحتى وفاته ظل راعيا للكنيسة الطائفية أو الإبراشية Congregational فى دورشستر وهو الذى ألف كتاب المزامير الذى يسمى Bay Psalm book . و أما انكريز ماذر الذى اختاره المؤلفان عينة للجيل الثانى (١٦٣٩ ـ ١٧٢٣) فهو ابنه ـ وقد عمل راعياً لكنيسة بوسطن الشمالية (أو الثانية) منذ ١٦٦٤ وحتى وفاته ، وكانت له محاولات مشهورة جعلته بمثابة العدو الأول لأى نوع من التحديث فى نظام نيو انجلند كنيسة أو حكومة ، وقد عارض بقوة أولئك الذين أرادوا تحديث

نظام الكنيسة أو قوانين التطهر وقضى ماذر أربعة أعوام فى لندن فيما بين ١٦٨٨ و ١٦٩٢ عند وليام الثالث حتى حصل منه على موافقة بتوحيد بليموث ومساتشوستس . وعمل ماذر مديراً لجامعة هارفارد فيما بين ١٦٨٥ و١٧٠١ وكان قريباً من الباحثين والعلماء على الرغم من تحفظه الدينى والسياسى، وساند من موقعه كمدير للجامعة حملة التطعيم ضد الجدرى ، وكان هذا بالطبع موقفاً غريباً من رجل دين على مثل مذهبه، يهمنى أن أذكر لك أن انكريز ماذر ولد حقيقة فى دورشستر لأن أباه كان فيها منذ ١٦٢٥ كما ذكرت لك فى الفقرة السابقة. ولكن انكريز ماذر درس فى هارفارد كما درس فى كلية ترنيتى فى دبلن ، وقضى سنوات طويلة من حياته مبشراً فى الجزر البريطانية .

أما كوتون ماذر الذى اختاره المؤلفان عينة للجيل الثالث فهو ابن انكريز وحفيد ريتشارد وقد رُسم كاهناً فى ١٦٨٥، وقد أصبح بذلك مساعداً ومشاركاً لوالده فى كنيسة بوسطن الشمالية ، وتولى منصب راعى الكنيسة حين سافر والده إلى لندن كما ذكرنا .. ثم تولى مسئولية الكنيسة بعد وفاة والده . وقد ألف كوتون ماذر هذا ما لا يقل عن ٤٥٠ كتابًا وقد تاثر بنيامين فرانلكين بأحد كتبه وهو كتاب Essays to do God الذى ألفه ١٧١٠ ، وكان كوتون كوالده صديقاً للعلم والتعليم ساعد فى إنشاء كلية بل وكان أول أمريكى ينتخب زميلاً للجمعية الملكية فى لندن ، ومثل هذا الشرف يعطيك فكرة عن هذا التألق الذى يمثله كوتون ماذر الذى ترى صوره فى القواميس والموسوعات الأمريكية معبرة تماماً عن هذا التألق . هذا وقد ولد كوتون فى بوسطن.

بقى أن أحدثك عن وليام شيرى ، وقد ولد ١٦٩٤ فى إنجلترا وتوفى عام ١٧٧١ ، وقد عمل كحاكم للمستعمرة مساتشوستس فيما بين ١٧٤١

و١٧٦٥، وتولى لفترة قصيرة قيادة القوات البريطانية فى شمال أمريكا . كان مسئولاً عن الاستيلاء على لويزبورج فى ١٧٤٥ فى أثناء الحرب الفرنسية الهندية وعندما ضمت إنجلترا مساتشوستس إلى جانبها فى الحرب استطاع شيرلى تحرير النظام النقدى وإصلاحه . وقد تولى حكم جزر الباهاما فيما بين ١٧٦١ و ١٧٦٧ .

دعنا نتحرك إلى الدورة الثانية دورة الثورة Revolutionary وفى هذه الدورة هى الأخرى أربعة أجيال .

الجيل الأول جيل اليقظة أو الصحوة Awakening (١٧٠١ ـ ١٧٢٣) وعينة هذا الجيل الرجل العظيم بنيامين فرانكلين الذى لا شك أنك تعرفه ، وهذا الجيل بالطبع جيل مثالى .

الجيل الثانى جيل الحرية Liberty (١٧٢٤ ـ ١٧٤١) وعينة هذا الجيل هو الرجل العظيم جورج واشنطن الذى لا شك أيضا فى أنك تعرفه ، وهذا الجيل بالطبع جيل فاعل .

الجيل الثالث جيل الجمهوريين Republican (١٧٤٢ ـ ١٧٦٦) وعينة هذا الجيل هو الرجل العظيم توماس جيفرسون ، وهذا الجيل بالطبع جيل مدنى، يؤسس دولة ومؤسساتها .

الجيل الرابع جيل التوفيق Compromise وهؤلاء ولدوا فيما بين (١٦٦٧ ـ ١٦٩١) ويمثلهم أندور جاكسون ـ وهؤلاء الموفقون بالطبع قوم متأقلمون.

استطيع أن أؤكد لك الآن ياسيدى القارىء أنك قد بدأت تتفهم فلسفة المؤلفين فى هذا الكتاب ـــ ربما لأن معرفتك بهؤلاء الرجال الذين يمثلون عينة الدورة الثانية ـ دورة الثورة تفوق بالطبع معرفتنا ومعرفة كل الناس بالدورة

الأولى حيث كانت أمـريكا لا تزال فى ظلام المستعمـرات أو تحت تأثير ضبابها الذى لم ينقشع بعد .

دعنا نمضـى مع المؤلفين مع جيل الدورة الثـالثة دورة الحرب الأهـلية Civil War هـذه الدورة يـاسيدى تضم ٣ أجيـال فقط ، فليس فى دورة الحرب وقت للمدنيين ، أقصد ـ بل يقصد المؤلفان ـ أن أحداً من الـذين ولدوا فى أثناء الحرب لن يكون مدنياً .

الجيل الأول (١٧٩٢ ـ ١٨٢١) جيل ماوراء الماديات هكذا أفهم قصده من تسمية هذا الجيل بجيل Transcendental ربما جاءنى الفهم من عينـة هذا الجيل وهو الرجل المحبب إلى قلبى إبـراهام لنكولن الرئيس السـادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) هذا الجيل بالطبع جيل مثالى .

الجيل الثانى وهـو جيل فاعل حسب تطـور الدورة هو مـواليد الفترة من (١٨٢٢ـ١٨٤٢) وعينتهم هو أولـزسيـز جرانت وهـو جيل المُذْهبين Gilded وجرانت هو الرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة الأمريكية ، ولد ١٨٢٢ وتوفى ١٨٨٥ وتولى الرئاسة فيما بين ١٨٦٩ ـ ١٨٧٧ وهو مـن مواليد أوهايو وهو الـذى قاد قـوات الحلفاء إلى النصر فى ميسـورى عام ١٨٦٦ وعين قـائداً أعلى للقـوات الأمريكيـة فى ١٨٦٤ ثم سرداراً للقـوات الفيـدرالية تحت قيـادة لى فى ١٨٦٥ ثم انتخب رئيسـاً لدورتين رئاسيتين وأخفق فى الترشيح للثـالثة وقـد جاءته السياسة من باب النجاح العسكرى الذى حققه ، وقد تكونت شخصيته بفضل العـزم والدقـة والثقـة والقدرة على التعلـم من التجارب ولكن المعيتـه العسكريـة لم تكن قادرة على حل مشـاكل الأمة .. هكـذا يقول الأمـريكان عن قـائدهم فى ١٨٧٠ قبل أن يقـول البريطانيـون عن تشـرشل فى ١٨٤٧ نفس

الكلام، وأعداؤه يقولون عنه إنه رئيس ضعيف ويكاد المؤرخون يوافقونهم على ذلك .

الجيل الثالث والاخير فى هذه الدورة (١٨٤٣ ـــ ١٨٥٩) وهو جيل التقدميين Progressive جيل متأقلم ويمثل هؤلاء الرئيس تيودور روزفلت.

تبدأ بعد هذا كله الدورة الرابعة دورة القوى العظمى . وأول أجيالها (١٨٦٠ ـ ١٨٨٢) هو جيل المبشرين أو رجال الإرساليات ـ وهم مثاليون [حسب تقسيم المؤلفين] ويمثل هؤلاء فرانكين روزفلت . ثانى أجيال هذه الدورة (١٨٨٣ ـ ١٩٠٠) يطلق عليهم المؤلف تسمية الجيل الضال أوالضائع Lost ـ وهم فاعلون ـ ويمثل هؤلاء دوايت أيزنهاور . ثالث أجيال هذه الدورة (١٩٠١ ـــ ١٩٢٤) جيل مدنى ـــ وهذا هو الجيل الذى نعرف كثيراً من شخصياته ـ بل إن من هذا الجيل الرئيس الأمريكى الحالى بوش، ومنه أيضا معظم الرؤساء الأمريكيين الذين عرفناهم فى السنوات الماضية ، عينة هذا الجيل عند المؤلف هو الرئيس العظيم جون كنيدى . رابع أجيال هذه الدورة (١٩٢٥ ـ ١٩٤٢) جيل متأقلم ـ ويسميه المؤلف جيل الصمت ـ ويأخذ عليه مثلاً والتر مونديل ، نائب الرئيس الأمريكى الذى تراه أنت وكل العالم اليوم يحظى بإنتقاد الأمريكيين لانه لا يفعل شيئاً ..

أما الدورة الخامسة فأول أجيالها هو جيل الازدهار Boom (١٩٤٣ ـ ١٩٦٠) وهو جيل مثالى عينته عند المؤلف هو نويت جنجريش .

ثانى أجيالها هو الجيل الثالث عشر Thirteenth لم يسمه حتى الآن إلا بهذا الاسم وهم مواليد (١٩٦١ ـــ ١٩٨١) ومن المفترض أن يكونوا فاعلين. ويأخذ عليهم مثلاً توم كروز وهو فنان أمريكى ناشىء محبب إلى قلوب الأمريكيين .

ثالث أجيال هذه الدورة هم مواليد (١٩٨٢ ـ ٢٠٠٣) من المفترض أن يكونوا مدنيين ـ والمؤلفان يعجزان عن تسمية هذا الجيل فيأخذان له اسم الدورة نفسها . وآخر الأجيال هو الجيل الذى لم يولد منه أحد بعد (٢٠٠٣ ـ ٠٠٠٠٠) ليس له اسم بعد . وليست له صفة وليست له عينة !!.

هل قصدت من استعراضى معك لهذه الدراسة كلها على هذا النحو أن أبين لك أن الأمريكيين ليسوا المثاليين فحسب ، وليسوا الفاعلين فحسب ، وليسوا المتأقلمين فحسب ، وليسوا المدنيين فحسب ولكنهم مزيج من تعاقب كل هذا من لدن مولدهم وإلى حين تبرز صفاتهم فى أعمالهم الجماعية فتصبغ الأجيال والحقب الزمنية بما نراه واضحاً ومؤشراً فى التاريخ المعاصر. وعلى أية حال فإن هذه الدراسة نموذج للدراسات التى تتناول التاريخ الاجتماعى من منظور يحاول أن يفهم تعاقب الحوادث فى ضوء فلسفة قد تخطىء وقد تصيب ولكنها تجيب عن سؤال لماذا حدث وكيف حدث بطريقة تهيىء الأذهان لقراءة تاريخ المستقبل

وتاريخ المستقبل شىء مهم جداً ، رغم أنى من أشد المقتنعين بأنه من المستحيل أن يمضى الزمن بطريقة خطية (Linear) فنفترض مثلاً زيادة فى الدخل إلى ١٢١٪ فى العام القادم إذا كان العام الماضى قد حقق فى نفس الظروف الزيادة إلى ١١٠٪ . نعم أنا من أشد المعارضين لمثل هذا التفكير الخطى ولكنى مع ذلك من أكثر المحبذين لاستعماله لبناء إطار أولى ـ وخط تمهيدى فحسب . نعم لن يصدق ولكن لا بد من وجود معيار نقيس به قيمة نفترض وجودها حتى إذا كنا متأكدين تماماً من أنها لن تكون هكذا .. لأن هذا عندى أفضل من العدم ! .

(٧)

أحب أن أحدثك الآن بشىء من التفصيل أو الإيجاز لا أدرى ، عن حياة

الأمريكيين اليومية اليوم!! ربما أبدأ بالإسكان وخاصة إذا كان المؤلف من بلد لا يعاني من شيء مثل معاناته من الإسكان!! سنتحدث كثيراً بالآكر ، فلا بد لك من أن تعرف كم يساوى الآكر ACRE الآكر ياسيدى مقياس مساحة وهو يساوى ٤٣,٥٦٠ قدماً مربعا أو ٤٨٤٠ ياردة مربعة أو ١٦٠ عموداً rods مربعاً . والآكر ياسيدى مربع الشكل كل ضلع من أضلاعه يساوى ٢٠٨,٧ قدماً . وفى النظام المترى الذى نعرفه جميعاً ياسيدى الآكر يساوى ٤٠٤٧ متراً مربعاً . [تذكر أن الفدان يساوى ٤٢٠٠ متراً مربعاً تقريباً] أى أن الآكر يمثل ٩٦,٣ ٪ من الفدان تقريباً وفى هذا النظام فإن الهكتار يساوى ٢,٤٧١ آكر . وفى الموسوعة التى رجعت إليها لأنقل عنها هذه المعلومات ـ وهى موسوعة كتاب العالم ـ الناشر Field Enterprisen Eductional Corporation شيكاغو . فى هذه الموسوعة رسم توضيحى يبين لك كم يساوى الآكر بمساحة البيوت المقسمة (البلوكات) فى أمريكا .. وأنت ترى فى هذا الرسم أن الآكر يساوى المساحة التى يحتلها سبعة بلوكات كل منها ٥٠ قدماً × ١٢٥ قدماً . سأقرب لك المسألة بالنظام المصرى (المترى) . تصور بيوتا متلاصقة من اليمين والشمال على صف واحد لكل بيت منها واجهة طولها ١٥ متراً وتمتد هذه البيوت متوازية جميعاً فى العمق بطول ٣٧,٥ متراً إذن فكل بيت من هذه البيوت مساحته ٥٦٠ متراً تقريباً الآكر ياسيدى هو سبعة من هذه البيوت الضخمة الفخمة .

تصور أننا أخذنا كل بلوك من البلوكات فقسمناه قطعتين (على طريقة رأس البر مثلاً) كل قطعة ٢٨٠ متراً إذن هذه المساحة على طريقة الإسكان الإقتصادى تكفى ٣ شقق (أحيانا ٤ ونادراً ٢) ومثل هذه البيوت الأربعة عشر تكون مع بعضها آكر واحد .

تعـال نتأمل حال الأرض الـزراعيـة فى مصر تتحول إلى أرض مبـانى أنت تعرف أن الفدان ٢٤ قيراط ـ الاكر يساوى على أقل تقدير ومع الإكرام الواجب لك ـ ٢٣ قيراط ، وعـادة فإن الفدان يمكنه أن يهيىء أرضاً لإقـامة ٢٤ بيتاً أو ١٦ بيتـاً من مستـوى أرفع . قل أن الاكـر يهيىء ٢٣ بيتـاً أو ١٥ بيتـاً من مستوى أرفع وقارن ذلك ببيـوت الأمريكان التى أحدثك عنهـا الآن . خذ مثلاً ياسيدى هـذا البيت الصغير الذى أسكنه ـــ طابقه العلوى ثـلاث حجرات نوم فقط وحمام . فى طابقه الأول حجرة استقبال وحجرتا نوم ومطبخ وحمام . هذا البيت ياسيدى يتمتع بأرض واجهتها خمسون قدماً على شارع رئيسى وله فى العمق أقصد لأرضـه فى العمق ٢٢٥ قدمـاً . إذن فهـذا البيت يملك من الأرض ٥٠ x ٢٢٥ قدمـاً وهـو مـا يزيد عن ربع فـدان !! هذا الـربع فـدان فى ريف مصر كاف لإقامـة ستة بيوت على الأقل فيها من الحجـرات أكثر بكثير مما فى بيوت الأمريكان .

أظننى الآن قد وصلت معك إلى تصور قائم على المقارنة ، ولعل صورة هذه البيـوت الجميلة المتنـاثرة على المسـاحات الخضراء الممتـدة قد اتضحت أمـام ناظـريك الآن . كل بيت يطل على الجهات الأربعة . أمـامه الشارع الـذى يأخذ منه رقمه ، ووراءه مـائتا قدم على الأقل منها مائة قـدم يمتلكها فضاء تتصل بمائة قدم فضـاء أخرى هى التى تمثل عمق البيت المناظـر المطل على الشـارع التالى . وعن يمين وعن شمال فضـاء مرصوف بعضه لتمـر منه السيارات إلى الجراج خلف المنـزل ، هذه هى البيـوت ياسيـدى . ليس هنـاك بيت فى مدينـة مرتفعات كليفيـلاند كلها شذّ عن القاعـدة و ارتفع أكثر من دورين ، إنما كل البيـوت حـريصة على نفسهـا لم تصبهـا حمى الهدم والأسمنت المسلح التى تجتاح مصر فيما يشبه الوبـاء الذى يستعذبه المصابون بـه . ويظنون ارتفاع درجة الحرارة المصـاحب للحمى نوعاً من التدفئة المركزية غير مدفوعة الأجر .

وكل هـذه المنطقة يـاسيدى مسماة بأسماء إنجليـزية . لى ، كنجستـون ، فيرمـونت ، فايـرهل ، تـايلـور ، كوينستـون ، بـرنستـون ، شارلستـون ، مارلبورو، نورثن بارك ... إلخ .

(٨)

والناس يسكنـون بيوتهم .. لكلٍ بيته ، ولكل بيتٍ صاحبُـه ، وهكذا الحال فى سبعين فى المائة من مساكن الأمريكيين .. وتتبقى بعـد ذلك ثلاثون فى المائة من المسـاكن للمـواطنين الذين لا تمكنهـم ظروفهم من بنـاء المسـاكن أو إلى اقتنـائها إلا بعـد حين .. حين يتـاح لهم الدخل أو حين تتـاح لهم الأسرة التى تستلزم مسكناً .. أو حين يتاح لهم الاستقرار .

أحب أن أستأنف هذا الحديث عن بعض جوانب الحياة اليومية فى الولايات المتحدة الأمـريكية لكى تتأمل بنفسك هذه الجنة أو هـذا الجحيم . أنت تعرف مثلاً أن الحياة هنا قامت على مبدأ الاعتماد على السيارات الخاصة . وحين كنا لا نـزال دون العـاشرة كنا (أنـا وأخى أحمد) نستمع بشـوق إلى أى صـديق للعائلـة عاد من أمريكـا فكان أول ما يحكيـه هو أنه لا أحـد هناك إلا ويمتلك سيارة . حتى إن كل العاملين فى فرن الخبز يركبون سيارات من ذوات الأبواب الستة .. لهذا فليس غريبـاً عليك أنك ترى السيارات وكثرتها اللامتنـاهية هنا ولكنك مع هذا تجد الأتوبيسـات العامة على فخامتهـا وجمالها وتكييفها قليلة العدد . متباعـدة الزمن فى مرورها عليك .. وعلى سبيل المثـال فإن عودتى من المستشفى إلى البيت فى الأسبوع الأول كـانت تستغرق ربع ساعة بـالتاكسى ولكنهـا تستغـرق مالا يقـل عن السـاعـة بـالأتـوبيس رغم أننـا نسلك نفس الشـوارع بـلا اختصار على الإطـلاق . ذلك أننـا فى الأتـوبيس ننتقل مـا بين أتوبيسين أولهما ينقلنا إلى ميدان واسع فسيح ، ولكنه بلا حياة على الإطلاق ،

وهو ميدان دائرة الجامعة ، أو حلقة الجامعة . ثم تنتظر قرابة نصف ساعة حتى يأتى أتوبيس آخر .. هذا إذا عدنا بعد الساعة الثالثة .. أما إذا عدنا قبل الساعة الثالثة (وهو ما لم يحدث) فإننا نكون حينئذ معرضين لانتظار الأتوبيس الثانى قرابة ساعة !! لأنه فيما قبل الثالثة لا يأتى إلا كل ساعة .

لعل أسوأ ما فى الأتوبيس هو ذلك الوقت الطويل الذى تنتظره فيه بين مجموعة قليلة من البشر لا تبعث أبداً إلا على الخوف ، بل والرعب، هل تستأهل المسألة هذا الرعب .. أم أننا من كثرة ما حذرونا (حتى ونحن لا نزال فى أقطارنا)من هؤلاء الأمريكيين أصبحنا نخشاهم بأكثر من اللازم ، ونخشاهم جميعاً الصالح والطالح .. نعم ياسيدى ربما يكون رأيك أننى أبالغ فى قولى أن هؤلاء لا يبعثون على الاطمئنان أبداً . ألا ترى هذه الملابس التى لاتدل إلا على أنهم خرجوا فى سرعة متناهية حين علموا بوجود الضحية (الذى هو أنا مثلاً) حتى يقتلوه ويسلخوه ويعودون بجلده وكل ما فى جلده .. انظر إلى هذه الوجوه ، هل تتوقع من هذه الوجوه أن تستجيب لرجاءاتك حين تصبح ضحية فى أيديهم .. والجأ إلى الله أن يزيل عنى الخوف . ولكن أليس من حقى على نفسى أو من حق نفسى علىّ ألا أرمى بها إلى التهلكة؟ هكذا تتدافع مشاعر الخوف والاطمئنان حتى يأتى الأتوبيس والأتوبيس لا يأتى .. اللهم ارحمنا برحمتك من أنفسنا .. ومن عبادك.

هذه هى أتوبيسات هيئة RTA أى هيئة النقل السريع أو ما يناظر هيئة النقل العام بالقاهرة أو الأسكندرية أو مرفق النقل الداخلى بالزقازيق قد أكون راغباً فى أن أحدثك كثيراً بشىء (لا يخلو فى نظرك) من التحامل على هذه الأتوبيسات وكيف أن نظام النقل الداخلى فى أمريكا لا يرقى إلى أوروبا بعد أن حدثتك عن اتساع الفجوة الزمنية بين كل أتوبيس والتالى له . وربما لم أعبر لك تماماً عن مدى الرعب الذى يعترينى فى زيارتى السابقة لأمريكا أو فى هذه الزيارة حين أقف فى محطة من محطات الاتوبيس ربما وحيداً تماماً وربما

محاطاً بأحد الزنوج أو بعضهم يأتون بحركات لا تبعث إلا على الرعب وقراءة الشهادتين قبل أن تلقى حتفك .. ربما يكون السبب فى كل ذلك أنى مُقلٍ إلى أبعد الحدود فى ركوب هذه الأتوبيسات هذه المرة والمرة السابقة ولهذا فلك أن تأخذنى على أننى صاحب انطباعات ولست صاحب خبرة أو رأى .

ولكننى اليوم فقط بدأت أدرى كم تتكلف الخزانة الأمريكية من أجل بقاء هذه الأتوبيسات فى خدمة الطوائف التى تضطر إليها .. نعم كنت أتحدث إليك فيما مضى من فقرات عن أن الاعتماد هنا على السيارات الخاصة ولكنى لم أستطع توضيح الصورة الحقيقية التى لمستها اليوم وهانذا أفعل كى أكون أميناً على الصورة .ركبت الأتوبيس من محطة ميدان الجامعة أو حلقة الجامعة (حسب الترجمة الحرفية) ، كانت معى تذكرة من النوع الترانزيت أى التى أركب بها أتوبيسين متعاقبين وهى لا تكلفنى إلا دولاراً واحداً هو كما تعلم لا يسمن ولايغنى من جوع فى أمريكا . ركب معى الأتوبيس شخص آخر . نحن الآن فى أول محطة لهذا الأتوبيس الذى يبدأ فى ميدان الجامعة وينتهى فى البيتش وود.

أنت تعلم من فقرة سابقة أنه فيما قبل الساعة الثالثة لا يأتى هذا الأتوبيس إلا كل ساعة مرة، وبعد الساعة الثالثة يأتى كل نصف ساعة .. وتزداد هذه الفجوة أيام السبت والأحد .. ولا يعمل هذا الأتوبيس بعد الساعة السابعة مساء .. أى أنك لن تجده لا فى الثامنة ولا فى التاسعة ... إلخ . تماماً كأتوبيسات الأقاليم فى مصر منذ عشرين عاماً وربما أكثر من عشرين عاماً وفى أيام الآحاد لا تعمل معظم الأتوبيسات وفى أيام السبت تنتهى دورتها فى حوالى الخامسة وثمان وثلاثين دقيقة !!

تسألنى كيف سار هذا الأتوبيس فى تلك الرحلة . سأحكى لك بالتفصيل الممل ، فقد انتظر الأتوبيس حوالى ٧ دقائق فى محطة البداية فلم يركبه أحد

بعدنا . بعدنا هذه تعنيني أنا وشخص آخر فقط ، غير السائق بالطبع. وبعد محطتين اثنتين نزل الشخص الآخر وبقيت بمفردى .. محطتى كانت السابعة أو الثامنة . لم يصعد أحد قبلها الأتوبيس وبالطبع لم يهبط أحد .. قررت أن أكمل رحلتى مع هذا الاتوبيس إلى نهاية الخط وطوال حوالى عشرين محطة يستغرقها خط سير الأتوبيس لم يصعد أحد ولم يهبط أحد .. إذن هذا الأتوبيس قام من ميدان الجامعة إلى ساحل البيتش وود من أجل موعده فحسب . وتحرك هذه المسافة كلها بطوله وعرضه ودخله منها لا يتعدى دولاراً واحداً .. أقل من ثمن نصف لتر من الوقود . لن أقول لك أكثر من ذلك .

ليس لى شأن كما تعلم بالبيتش وود إنما كنت أتتبع مسار هذه الاتوبيسات من باب ما نسميه فى الرحلات «بالجولات الحرة» ، عدنا من البيتش وود ، لم يكن ينتظرنا هناك أحد على الإطلاق ، وبعد تحرك الأتوبيس بدقيقة إذا بسائقه يقف به ، هناك وراء الأشجار كانت سيدة تشير إليه كانت فى ملابس الرياضة القاسية ، وكانت فى عقدها الخامس أو ربما السادس . وكان السائق يعرفها ، وصعدت الأتوبيس بملابسها الرياضية .. وكان من الواضح أنه ليس معها شىء على الإطلاق . ربما استغنت بمعرفة السائق لها (وبالتأكيد معرفة المفتش أيضاً) حتى عن أن تحمل الأبونيه الذى يبين أن من حقها الركوب!! . نعم ياسيدى تبوأت السيدة مقعدها ، وحدثت السائق عن رياضتها فى ذلك الصباح وبعد خمس محطات أخرى صعدت سيدة أخرى بدينة بإفراط إلى الحد الذى أثر على قلبها بالهبوط . وتبوأت هى الأخرى مقعدها الذى يبدو أنه كان مخصصاً لها من دون كل المقاعد . وبعد ثلاث محطات أخرى صعدت سيدة سوداء أخرى . بينها وبين السيدة البدينة حديث متصل بدأ بالأمس أو ربما من أمس الأول أو قبل ذلك . والأتوبيس يمضى بنا حتى جاءت محطتى !! هل الحكومة الأمريكية مظلومة أو ملتزمة؟

أين يذهب الدعم ياسيدى .. هل هذا إهدار للدعم . الحقيقة أن المظلوم هو شعبنا المصرى الطيب الكريم الذى عانى ومازال يعانى حتى ولو لم نرفع عنه الدعم الهزيل ! .

(٩)

لعلك تريد بعضاً من الحديث عن المرور فى الولايات المتحدة الامريكية ، بعد ما سمعت عن طرافته . فعلى الرغم من الشوارع العريضة الواسعة والميادين الاكثر اتساعاً فإن هناك كثيراً من القواعد والحدود التى يجب الالتزام بها . وعلى سبيل المثال فإن إشارات المرور فى كثير جداً من الأحيان مهيئة بحيث تقودك إلى الامتناع عن السير فى اتجاه ما وأحيانا أخرى إلى السير فى نفس الاتجاه !! لا تعجب من ذلك فإن فى النظام الأمريكى ما يجعل بعض الشوارع ذات اتجاه واحد فى أيام العمل وذات اتجاهين فى عطلة نهاية الاسبوع، أو فى غير ساعات العمل !! وقد أعدوا أنفسهم لذلك بأن جعلوا الإشارة تتكون من رؤوس أو نقاط مضيئة . تضىء بعضها على النحو الذى تكون به سهما فتعنى المرور وفى ذات الوقت تضىء نفس الإشارة من الجهة الأخرى على النحو الذى تبدو به على هيئة حرف × فتعنى بالطبع عدم المرور.. وإذا كانت الإشارة تعنى المرور كان السهم رمز المرور مضيئاً بالأخضر . أما إذا كانت تعنى عدم السماح بالمرور كان حرف الإكس بالأحمر .و على هذا النحو أيضاً تجد الإشارة للمشاة . حين تخضر فإنها تقرأ لك بالحروف أنك تستطيع المشى . وحين تحمر فإنها تقرأ لك " لا تمش " !!

ومع هذا فإن من حق أى مواطن يمشى على قدميه (أحب أن أقول من حق كل راجل ولكنى أخشى المطبعة أن تصححها كل رجل فيصبح المعنى مشوهاً تماما كأنه ليس من حق السيدات) ، أقول من حق كل من يمشى على قدميه أن

يكسر الإشارة ويمشي ، وتحترمه السيارات مع هذا تماماً. أما اللافتات الإرشادية التي تقودك طوال طريقك فهي نموذج حيٌّ للحضارة الأمريكية التي قامت على الوضوح التام الذي لا لبس فيه. الوضوح الذي يعني التحديد الذي يكون القول السائد فيه هو «وعلى سبيل الحصر» لا «على سبيل المثال» .. ولأنهم يأخذون الأمور على سبيل الحصر لا على سبيل المثال فإنهم يقللون إلى أدنى قدر ممكن من المسائل الخلافية والاجتهادية والتفسيرات المتضاربة .. تلك المسائل والأمور التي تحكم اليوم أكثر من ٩٩٪ من مشكلات الإدارة المصرية حين تتصدى هذه الإدارة لمسئولياتها !! بقي أن أذكر لك أنك تجد عند تقاطع شوارع المدينة مع الطرق التي تؤدي إلى الطرق السريعة التي تمر بالمدينة من خارجها لافتات تذكر رقم الطريق . والطرق السريعة في أمريكا مرقمة كله ، أو هي أرقام فحسب ، وقد انتبهوا عند ترقيمها إلى أن يعطوا الطرق التي من الجنوب إلى الشمال (أو بالطول كما نقول) أرقاماً فردية . وأن يعطوا الطرق التي من الغرب إلى الشرق (أو بالعرض كما نقول) أرقاماً زوجية. وهكذا فإنك لن تضل طريقك ابداً .. اللهم إلا أن تكون في طنطا متوجهاً إلى الإسكندرية فتأخذ طريق القاهرة الإسكندرية وتصمم على السير في إتجاه القاهرة إلى أن تكتشف هذا الخطأ بعد بضعة كيلو مترات .

(١٠)

وفي كل ما حققته أمريكا وما تحققه لا تزال أمريكا حكومة وشعباً تؤمن بالكتاب والمكتبة .. لم يزعزع هذا الإيمان الدفين فيها أنها هي التي نشرت التليفزيون وبرامج التليفزيون .. لا تزال المكتبة عند هؤلاء القوم شيئاً مقدساً. والمكتبة هي إحدى المعالم السياحية البارزة في كل مدينة وكل حي من أحياء

أمريكا، مبناها فخم ضخم تحوطه الحدائق أو مساحات الانتظار، ومواعيدها مناسبة لكل الفئات، والتسهيلات التى فيها لا تخطر ببال.

ومع هذا كله فقد اتسعت المكتبات الأمريكية العامة لمجاراة روح العصر، فأصبحت تعتمد على الكمبيوتر فى الفهرسة والتزويد والاستعارة، وأصبحت تضم قاعات خاصة بالكمبيوتر والبرامج المسجلة على الشرائط المغنطة الصلبة Hard desk ولكن كل هذا من منظور مساعد للكتاب وليس بديلاً عنه. ولا تزال ترى أمارات الخير وبشائر الأمل فى مستقبل هذا الشعب حين ترى الشباب والشابات وفى أيديهم الأعمال الأدبية يقرأونها فى قاعات الانتظار، أووهم قادمون لزيارة المرضى فى المستشفيات.

أما المكتبة الطبية الأمريكية فشىء مبهر وأنا كما ترى أتحدث عنها كشىء واحد ولا أقول المكتبات. وذلك أننى أريد أن أدلك على ما فعلوه بهذه المكتبات حين جعلوها جميعاً تتصل بقاعدة معلومات قوية تهيىء للطبيب (أوالممرضة) أن يتلقى أى مقال يريد أن يقرأه فى خلال يومين على أقصى تقدير، وذلك بفضل برنامج للبحث عن المعلومات يأخذ فى اعتباره المسافة بين موقع الطبيب السائل عن الشىء، وموقع المكتبات التى فيها هذا الشىء، وينتقى أوتوماتيكياً لهذا الطبيب أقرب هذه المكتبات إليه حتى لا تتكلف المكتبة الطالبة كثيراً من نفقات البريد. أحب أن أضرب مثلاً بالطلبات التى كانت أمامى فى مكتبة مستشفى كليفيلاند. فكثير من هذه الطلبات كان موجوداً فى مكتبة جامعة CWRU فى كليفيلاند نفسها. تسألنى ولماذا لا يخطفون رجلهم إلى مكتبة جامعة كيس ويسترن، ويبحثون هناك عما يريدون قبل أن يسألوا عنه الكمبيوتر. فأجيبك فى هدوء وماذا يفعل الكمبيوتر إذا خطفوا أرجلهم، تماماً (مع عكس المنطق) كما يتمنى مصرى أمريكى أن ندخل الكمبيوتر فى مصالح الحكومة فنجيبه ياسيدى القارىء بقولك وماذا نفعل بجحافل الموظفين ؟

وقد كنت فى غاية السعادة حين أتاح لى الحظ أن أطلع فى ركن الكتب الموجود فى أحد المحلات العامة على مجموعة كبيرة من الكتب التى خفضت أسعارها إلى أقل من الدولار، وأسعدنى أكثر أن أرى بين هذه المجموعة مجموعات الكتب التى تمثل الحلقات أو المسلسلات التليفزيونية الشهيرة .

وقد وجدت أن حلقات أيام حياتنا Days of our lives موجودة فى أحد عشر كتاباً على الأقل .. ووجدت من مسلسلة "عالم آخر" Another world إثنا عشر كتاباً ومن مسلسل دالاس الشهير أحد عشر كتاباً . ومن مسلسل (بينما يتقلب العالم) As the world turns كذلك والطريف أن الذى يقوم بنشر هذه المجموعات ناشر كندى أو مقره فى كندا هو Pioneer communication network وتطبع هذه الكميات الضخمة فى كندا وتحمل علامة تجارية اسمها Soaps & Serials وتوزع كما ترى فى كافة أنحاء الولايات المتحدة ، وقد ينزل بها التخفيض إلى حوالى ٦٧ سنتاً أى أن الثلاثة بدولارين . وتسألنى عن سر سعادتى ، لعلك توافقنى على أن الأدب التليفزيونى لا بد أن يكون مكتوباً وإلا تحول إلى مجرد أداة لملء أو لسد الفراغ بين ألعاب تليفزيونية مبهرة .. أى بعبارة أخرى لا بد أن ترقى الفكرة الفنية والأدبية فى مادة أى عمل تليفزيونى إلى درجة أن تكون قابلة للصياغة فى كتاب ، وربما أعود لأستفيض معك فى نقاش هذا الموضوع فى موضع آخر .

(١١)

لا يزال الطعام الأمريكى رخيصاً وفى متناول الناس جميعاً . ربما لا يزال عندهم ذلك الخير الذى كنا نفخر به فى مصر من دون أن نحمد الله عليه ، حين يكون فى وسعك مهما كان دخلك أن تجد طعاماً يكفيك الجوع. وقد كان من حظى أن أتناول الطعام فى عدد من المطاعم الراقية التى تختلف جنسيات طعامها من المكسيكى إلى اليونانى إلى الإيطالى إلى الفرنسى إلى الصينى ، وذات

To: www.al-mostafa.com

مرة قال أحد أصدقائنا وكان يابانياً ألا تودون أن تأكلوا طعاماً أمريكياً . ووجدتنى أعلق أنه لا يوجد شيئاً أسمه الطعام الأمريكى اللهم إلا إذا كنت تقصد تلك الوجبات السريعة من أمثال الهوت دوجز ، والبيزاهت ، والماكدونالد وحتى هذه فإنها تطوير لأطعمة أخرى فالبيزا هت هى الطبعة الامريكية من البيزا الإيطالية ، وهكذا .. أنا لا أعرف إن كنت مصيباً فيما أقول أم لا .. ولكننى وجدت المستمعين من زملائى الذين كانوا معنا فى السيارة يوافقوننى... والله أعلم . ولكنى مع هذا أريد أن أحدثك على سبيل المثال عن هذا المطعم الذى كثيراً ما يزود مؤتمرات قسم الباطنة العامة بالطعام ، اسمه السيد البطل MR. HERO وقد جعل شعاره المطبوع على الأكياس الخاصة به أنه منقذ العالم من الأطعمة السريعة التقليدية !! تسألنى عن هذا الإنقاذ الذى صنع فاقول لك إنه يقدم ستة أنواع من السندويتشات يبعث حوالى سبعة من كل نوع فى كيس وعليه اسم النوع بالقلم الفلوماستر ، كيس لسندويتسات الديوك الرومى [فى البلاد التى تمت للحضارة الرومية يسمونه بالديك التركى وفى بلاد كمصر والبلاد العربية ارتبطت بتركيا يسمونه بالرومى] وكيس لسندويتشات اللحم البقرى المحمر ، وثالث لسندويتشات لحم التونة ، وخامس لسندويتشات الجمبرى، وسادس من نوع آخر من لحوم الخنزير وكل سندويتش ملفوف فى أوراق السيد البطل منقذ العالم من الأطعمة السريعة المعتادة . مع أن مسألة إنقاذ العالم هذه فيها نظر!! . وأحب أن أذكر لك كذلك أن أمريكا انتبهت منذ ما قبل منتصف الثمانينات إلى خطورة استعمال الأكياس النايلون على البيئة والغلاف الجوى وعادت أمريكا إلى استخدام الأكياس الورقية التى نعرفها جميعاً فى مصر ونظنها من بقايا عهد عصر ما قبل الانفتاح .

وفى أمـريكاً يحرصـون الآن تماماً على الإفادة مـن الصحف القديمـة فى صناعة الأكياس الورقية. وعلى الإفادة من علب الصفيح الفارغة التى تستخدم للمشروبات والمأكولات كذلك .. وعندهم الآن نظام قومى إسمه إعادة الـــدورة Recycling يقتضيهم أن يجمعوا هذه المواد على بعضها وأن يضعوها فى أكياس مخصوصة بحيث تذهب بعيداً عن القمامة إلى المصانع التى تتولى إعادة تصنيعها .. وتجد الأكياس الورقية مكتوباً عليها أنها صنعت من مواد «إعادة الدورة» . وهكذا .. وأذكر للإنصاف أن هذا النظام متبع فى المملكة العربية السعودية منذ مرحلة مبكرة وبالنسبة لى فقد رأيته فى السعودية بدون الاسم طبعاً قبل أن أراه فى أمريكا ـ لا أذكر بالتحديد فى أى المرات ٧٨ أم ٨٨ أم ٨٩ ؟ ولكنه أصبح اليوم بمثابة حمى جميلة تجتاح أمريكا كلها وفى معظم مصالحها وبيوتها وشوارعها أماكن مخصصة لإعادة الدورة Recycling .

(١٢)

و اهتمام مراكز البحوث الأمريكية والجامعات هنا بموضوع ما قد يصل إلى حد الجنون ! هذه هى حقبة أزمة صدام مثلاً فإذا بالدراسات التى تتناول الموضوع من كل زاوية لا تنتهى . وأنت تعرف أن نظامهم التعليمى فى الجامعة يقوم (فى أغلب الأحوال) على ما يسمى بنظام الساعات المعتمدة فى الجامعات ، وهو نظام يتيح للطالب أن يختار مقرراته فى حدود وتكون النتيجة أنه ينجذب إلى موضوع الساعة .. أحياناً لأنه سيجد مواده متوافرة ، وأحياناً لأنه يرضى فضوله، وأحياناً لأنه يمهد نفسه لشىء ما فى الوظائف القادمة بعد انتهاء هذه الأزمة .

وفى كثير من الأحيان يُعبر الطلاب من خلال اختيارهم للمواد التى يدرسونها عن رغباتهم الشخصية وفى هذا المجال يذكر أستاذ مسلم فى جامعة

أمريكية أنه وزع استبياناً على طلابه فى نهاية الفصل الدراسى وكان من بين أسئلته : لماذا اخترت هذه المادة ؟ وجاءته إجابة طالبة يهودية تقول :- to fight is Iam لأحارب الإسلام، ربما لم تكن تعرف أن هذا الأستاذ مسلم، وربما كانت تعرف ولا تبالى . وقد تداولت الصحافة العربية فى منتصف الثمانينات على ما أظن ما اسمته بفضيحة التحقيق فى مؤتمر إسلامى فى جامعة هارفارد مولته المخابرات الامريكية بخمسين ألف دولار ، و هذا المبلغ كما تعرف مما تقرأ عن المؤتمرات المصرية (لا الامريكية) ليس شيئاً ذا بال خاصة إذا علمنا أنه شارك فى هذا المؤتمر ما لا يقل عن ثلاثين عالماً أتى معظمهم من الشرق الاوسط خصيصاً له .

(١٣)

هل نجت أمريكا من حمى الطائفية والتفريق العنصرى أم أنها لا تزال تعانى ؟ سؤال كان لا بد لى من أن أتأمل الواقع أمامى لأجد عليه إجابة ولابد أن أطلب إليك أن تحاول معى معرفة نسبة السود بين هذا الشعب ، فأحياناً ما يهيىء للمرء منا أن ٩٠٪ من الأمريكان سود على عكس ما قد يعتقده الكثيرون منا أيضاً أن ٩٠٪ من الأمريكان بيض ـــ فى الاتوبيس مثلاً ١٠٠٪ سود ـ بين طوائف معينة ١٠٠٪ سود ـ فى الأسواق العامة ، فى مداخل الفنادق ... إلخ ، وعلى الرغم من أن هذا البلد هو بلد الإحصاءات فإنك لن تستطيع أبداً أن تقتنع بكثير منها .. ومع ذلك فهم يقولون أن ٦٠٪ من سكان ولاية أوهايو مثلاً من السود والله أعلم .

تأمل بعد هذا إعلانات التليفزيون فمن الغريب أن تجد الإعلانات وقد قصرت النجومية على السود .. هذا إعلان شهير عن دجاج كنتاكى فى هذا

الإعلان نجد أبطال رياضات كمال الأجسام وكلهم من السود ، وهم يستمتعون بهذه الوجبة.وينفثون شرر النار من أفواههم بعد تناولها ثم إذا بهذا الشرر قادر على أن يضع كرة السلة فى السلة بلا مجهود! مع أن دجاج كنتاكى هذا كما تعرف ياسيدى ليس إلا كثيراً جداً من المتبلات فوق قليل من الدجاج يكفى بالكاد لإطعام شخص أقل من العادى فيما يتعلق بكمال جسمه أريد أن أسألك هل لا يصلح هذا الإعلان بنجوم بيض ؟ اعتقد والله أعلم أن مثل هذه القوة العضلية البارزة لا توجد فى البيض أبداً بنفس القدر الذى هى فيه فى هؤلاء السود الذين يبعثون الشرر القادر بعد ذلك على أن يخطف كرة السلة ليضعها فى سلتها .

(١٤)

وأخيراً .. أحب أن أقول لك إنه لا يزال عند الناس فى أمريكا [عموماً] شعور الصداقة ، خذ مثلاً هذه المسافة التى أقطعها فى مرتفعات كليفيلاند فى طريقى إلى الأتوبيس أو إلى السوبر ماركت أو لمجرد المشى ، ها هم الناس يبادوننى بالتحية حتى أولئك الجلوس فى شرفات منازلهم عن بعد .. ولكنهم على النقيض من ذلك حين يكونون فى مجتمع مزدحم . تجدهم متحفظين إلى أبعد الحدود . وفى المستشفى تجد الزملاء والزميلات حريصين على أن يطمئنوا على أحوالك كلها : سكنك ، صيامك ، سفرك ، هواياتك ، راحتك .. ولكن ليس من اللحظة الأولى .. وحتى فى الأتوبيس تجد السائق يفتح معك حديثاً عن عملك ، و عن مواعيدك ولكن ليس من المرة الثانية أو الثالثة التى يراك فيها ولكن ربما من الرابعة . هل أريد أن أقول إن الأمريكيين ليسوا إنجليزاً ؟ نعم بالطبع . ولكن هل هم شرقيون ؟ نعم وربما أكثر من الشرقيين الذين نعرفهم الآن .

الفصل الثانى

أمريكا تستعيد أم تستعير روح العصر

(١)

كان أول سؤال وجهته إلى صديقىّ اللذين تفضلا بمرافقتى من الفندق إلى المنزل عن هذه الأعلام الأمريكية الكثيرة المرفرفة على كثير من المنازل وكان الجواب : بمناسبة الحرب ، قلت ولكن الحرب انتهت منذ أسبوعين بالنصر، قالا: نعم ولهذا يحتفظ بها الأمريكيون !! . وطوال إقامتى وجدت الشعب الأمريكى وقد أصابته روح جديدة روح تستعيد الانتصار على العراق! وتستعيد بهذا الحدث (الإعلامى) روح الانتصار ! . أما أن أمريكا انتصرت فأمر لا شك فيه .. وأما أن المعركة كانت صعبة فأمر هو الشك بعينه !! ولكن الإعلام الأمريكى لا بد أن يصورها كذلك ليجعل للانتصار معنى ! . أريد أن أقول إنه لم يكن هناك مبرر على الإطلاق لكى تخرج أمريكا من هذه المعركة بغير النصر! ولكن الأمريكيون لا يريدون إبراز هذه الحقيقة لأنهم بإبرازها يضيعون روحاً استعادوها . ثم أظهروا للناس وأنفسهم أنهم استعادوها !! لأنهم كانوا منذ حرب فيتنام فى حاجة إلى استعادتها !! .

روح النصر التى تغمر الأمريكيين اليوم روح مستعارة .. وهم أول من يعرف ذلك . فأمريكا وجدت نفسها أمام فرصة سانحة ربما لن يجود التاريخ

بمثلها ومن المؤكد أنه لم يجُد فيما مضى بمثلها على الإطلاق .. وقد عاملت أمريكا الفرصة السانحة التى أتتها كما يتعامل الرجل كبير السن مع كنز ذهبى لامع يجده فى الطريق الخالى إلا منه فإذا هو مصمم على ألا يتناول الكنز إلا بعد الاطمئنان تماماً إلى انتفاء شبهة المفرقعات عنه ، لأنه لا يزال يذكر قصة الألغام التى كان العدو يلقيها على الناس على هيئة أقلام وساعات ، فإذا ما انتهى من كل الشكوك استدعى للكنز الذهبى خبراء المفرقعات ! وأكثر من هؤلاء الخبراء، من دون أن يدفع لهم أجراً من جيبه ، وإنما هو قد استطاع أن يقنع أصحاب البيوت المهجورة القريبة من موقع الكنز بأنه لا بد لهم أن يشاركوه عملية إنقاذه لكنز لأنه يشك فى أن خادمه نسى فى داخل كنزه (الذى وقع منه !! ... وهكذا أصبح تعبيره عن الكنز مصمماً على وصف تملكه!!) موالداً مفرقعة قد تودى بحياتهم إذا ما وُجدوا بالصدفة بالقرب منه ساعة انفجاره .. وأصحاب البيوت المهجورة الواقعة فى الشارع الذى فيه الكنز يدفعون لخبراء يتولون تطهير الكنز من ألغام وهمية أو شبه وهمية .. والرجل المسن يأخذ نصيباً من أجور الخبراء نظير استجلابهم من شركة هو المساهم الأكبر فيها .. وبعضاً آخر نظير أجهزته التى يبيعها لهم من شركة أخرى هو صاحبها المنفرد ، وبعضاً ثالثاً نظير تعليمهم وتدريبهم فى معهد أمنى يسيطر عليه بماله وخبرته .. ومع كل ذلك يحتفظ بالكنز، ثم يحكى الرجل العجوز لأولاده وأحفاده المقيمين فى البعد كيف أجهد نفسه فى التقاط هذا النصر الثمين.. بينما كان هناك كنز آخر قريب لو وفقه الله إليه لكسب أضعاف ماكسب من الكنز الأول .. أقصد بالطبع حل مشكلة الفلسطينيين.

على أية حال فالانتصار الأمريكى فى حرب الخليج أياً كان حجمه هو أصدق تعبير عن الشخصية الأمريكية اليوم فى مجال الأعمال . وقد خاضت أمريكا الحرب وأدارتها من باب علم إدارة الأعمال وليس من باب الحماس .

وكل ما حققته أمريكا فى هذه الحرب هو انعكاس أمين لما وصلت إليه أمريكا فى مجال إدارة الأعمال .. وكل ما افتقدته أمريكا فى هذه الحرب هو انعكاس أمين أيضاً لكل ما تفتقده سياسات إدارة الأعمال فى أمريكا .

وطوال ساعات وأيام ممتدة كنت حريصاً على أن أصل إلى بعض الأضواء الكاشفة التى حكمت تصرفات أمريكا فى حرب الخليج.. ربما استغرقت فى تفكير عميق ومتصل فى بعض الأحيان ، وربما انتبهت على لمحات سريعة ومتقطعة فى أحيان أخرى ، ربما أسرفت فى التأمل حيناً ، وربما أسرعت بالاستنتاج حيناً آخر ، ربما حاولت تعمق بعض الظواهر فى بعض الأوقات. وربما اضطررت إلى البعد عن تفسير الظاهر بغير ماهو ظاهر، ولكنى مع هذا أستطيع أن أزعم بأن هناك عدة عوامل حاكمة كانت من أهم خصائص السلوك الأمريكى فى حرب الخليج وهو السلوك الذى قاد إلى النصر الذى نعرفه . سواء استعادت أمريكا روح هذا العصر . أو استعادت أمريكا به روح العصر .

- □□ تركيز العمل فى خط واحد .
- □□ النقطة المثالية هى الهدف وليست النقطة القصوى .
- □□ التمويل قبل التخطيط (وبالطبع قبل التنفيذ) .
- □□ التجريب فى نطاقات محدودة .
- □□ التوثيق القابل للاستدعاء الفورى .
- □□ وسائل الاتصالات المتعددة غير المتقاطعة .
- □□ تقبل الأمر الواقع كواقع
- □□ تقدير الأمثال .
- □□ استثمار اللغة .
- □□ نمذجة السلوك الإنسانى .
- □□ نمو التفكير الرياضى البيولوجى .

هل تسمح يـاسيـدى القـارىء أن أتحدث عـن هـذه العـوامل بشـىء من التفصيل .

(١) التركيز فى خـط واحد : هذا هو أبـرز وصف (أو أصدق) للاتجاه الذى يسيطر اليـوم على البيروقراطية الأمريكيـة فى دواوين العمل وفى البيوت أيضـاً لا تجد موظفـاً يلتفت إليك ولو بـالتحيـة إذا كان مشغـولاً مع عميل سبقك إليه .. وأنـت تطلب التليفون فيأتيك الصوت مـن على الجانب الآخر أن انتظر دقيقـة قبل أن تتكلم ويحولك إلى موسيقى الانتظـار ربما لعشرة دقائق حتى ينتهى الطـرف الأخر من حـديث تليفـونى على خط آخـر !! هل هذا هـو الهدوء أم هـو البرود ؟ قـد نختلف فى التعـريف والتـوصيف .. ولكن العقلية الأمريكيـة اليوم لا تعمل فى أكثـر من اتجاه فى ذات الوقت وقـد كانت معـركة الخليج نموذجاً حياً للاقتصار على اتجاه واحد فى كل حين .

□□ الحرب الأهلية تأخذ شهوراً من وقت العالم .

□□ القـرارات الـدوليـة والمشاركـات تمضى خطـوات لا يعـوزهـا التعقل ولاالصبر الشديدين .

□□ الهجوم الجوى يستغرق هذه الأسابيع الطوال وليس من هـجوم سواه.

□□ ترتيب الأوضـاع يستغرق كل هذا الوقت وبدون نظر إلى شىء آخر.

□□ الانسحاب يتم كما لو كان مسألة بيروقراطية تجرى على مهل شديد .

(٢) النقطـة المثاليـة هى الهدف : كل من درس التفاعلات البيـولوجية والكيميائية يفهم هذا المعنى جيداً ... وسأحاول أن أختزله فى مثل بسيط وهو أن أنسب درجة حرارة لجسمنا هى حوالى ٣٧ درجة مئوية مثلاً .. إذن فليست زيادة درجة الحرارة أو قلتها هدف وإنما الهدف هـو الوصول إلى نقطة معينة على المنحنى ، عند هذه النقطة يتم التفاعل المطلوب بأحسن ما يكون من نتائج.

واتركك ياسيدى القارىء تتأمل موقف الإدارة الأمريكية كلها من حرب الخليج فى ضوء هذه الحقيقة .

□□ الخلاف الظاهرى الذى لم نسمع عنه إلا بعد انتهاء الحرب بين الرئيس بوش والقائد شوارتسكوف حول تدمير قوة صدام حسين . وما ظهر للناس جميعاً بعد ذلك من حرص أمريكا الشديد على صدام حسين وبقائه بدرجة محسوبة من القوة والنفوذ!! .

□□ التعبئة الدبلوماسية فى الأمم المتحدة حتى صدور القرار الأخير بتحديد ١٥ يناير، مع أنه كان فى وسع الحلفاء التبكير بهذا الموعد (على مستوى القرارات) ولكنه كان الموعد الأمثل على مستوى التعبئة الحربية .

□□ الضوء الأخضر الذى أعطى لصدام حسين فى الوقت المناسب تماماً حين كانت سيارته قد تخطت الإشارة السابقة وأصبحت فيما بين إشارتين.. فأما الإشارة السابقة فقد غفل عنها عسكرى المرور العربى لانه كان يفقد أداة من الأدوات وهى الديمقراطية .. وكانت حرية الصحافة مغيبة غالباً (ويفعل دينارات عراقية فى بعض الأحيان) . والإشارة التالية كان لها جهاز مرتبط لسبب تكنولوجى بحت بالولايات المتحدة فى غرفة تحكم مركزية .. والناس يرون عمود الإشارة ولا يرون الإشارة .. وقد تفضلت السيدة السفيرة الأمريكية فى العراق فأعطت القائد الملهم انطباعها أو معلوماتها عن طبيعة الإشارة وأنها خضراء. وكانت سيارة صدام مهيئة لعبور الطريق بأكثر مما هى مهيئة للاستجابة للفرامل التى كان صدام قد قلل وعطل وأهمل استخدامها منذ زمن بعيد فى ظل ظروف الإسراع المستمر.

□□ الجرعات الإعلامية المحسوبة فى تقدير أوهام صدام وأوهام الناس عن صدام مع الاحتفاظ بروح التحفظ عند القادة الأمريكيين .

(٣) التمويل قبل التخطيط (وبالطبع قبل التنفيذ) : قد تستطيع حكومات أو إدارات كثيرة أن تفخر بأنها وفرت التمويل أو نسبة منه قبل البدء فى تنفيذ مشروع ما .. وفى الغالب يكون التمويل جزءاً من التخطيط أو هو المرحلة الأخيرة منها ، إلا أمريكا، فقد استطاعت هذه البلاد بقدرة قادر أن تروض نفسها على أن تجعل التمويل أولى خطوات التخطيط إلى الحد الذى يعرفه كل المتعاملين مع مشروعات التعاون المشترك مع الأمريكين من أنهم يخصصون منحة أولية لإجراء دراسة الجدوى قبل البدء حتى فى طرح التصورات المتعلقة بأى مشروع. وقد نجحت أمريكا فى حرب الخليج فى توفير التمويل وبأكثر مما هو مطلوب لكل خطوة من قبل أن تبدأ هذه الخطوة .

(٤) التجريب فى نطاقات محدودة : يحرص الأمريكيون على استخدام ما يسمونه «موديل» أو «نموذج» للمشروع يبدأون به ممارستهم للأفكار النظرية على الطبيعة . فيكتشفون من خلاله ثغرات التخطيط، وعيوب النظام القائم بالهدف . وفى الحرب ربما يصعب تصور وجود فرص للتجريب فى نطاقات محدودة.. ومع هذا فقد ساعدت قلة حنكة الرئيس العراقى وحماقته الأمركيين على إيجاد فرص ذهبية للتجريب فى نطاقات محدودة .. فكانت معركة الخافجى مثلاً نموذجاً مبكراً جداً لدراسة خطط المعارك البرية عند الجانب العراقى مما أدى إلى زيادة الثقة فى تطويل أمد الهجوم الجوى .

(٥) المعلومات والتوثيق القابل للاستدعاء الفورى : أمريكا اليوم أعظم الحضارات قدرة على الأرشفة ، ووضع كل شىء فى كل الملفات التى تتعلق بهذا الشىء . ولكن أمريكا التى تبذل من نفسها كل هذا الجهد فى توثيق كل خطوة وزمنها ومكانها وحالها وقدرها .. إلخ لا تفعل ذلك من باب حب الأرشفة (أو أداء الواجب كما نفعل) ولكنها تهيىء من كل هذا الأرشيف ذاكرة قوية قادرة سريعة منظمة تستطيع أن تستدعيها فى ثانية واحدة .. والتسابق

اليوم بين بنوك المعلومات ونظم المعلومات يدور حول المدى المتناهى فى الصغر من الثانية لاستدعاء المعلومات . وفى كل اللحظات التى كان على القائد الأمريكى فيها أن يفاضل بين خيارين كانت بنوك المعلومات تفاضل له بين تلال من المعلومات والبيانات إلى الحد الذى كانت نسبة الخطأ تتلاشى ونسبة الزيغ تنعدم .

ومع هذا فإنى متأكد أنك سوف تطالع فى الشهور والسنوات القادمة انتقادات عنيفة من النواب والشيوخ الأمريكيين للمخابرات الأمريكية ووزارة الدفاع لأنها لم توفر للجيش الذى تولى عاصفة الصحراء معلومات عن تكلفة سندويتشات الفول المصرى التى كان من الممكن نقلها بالطائرة إلى القوات الأمريكية فى عطلة نهاية الأسبوع كبديل ممتاز للكشرى الأمريكى !! بدلاً من انتظار هذا الكشرى من أمريكا فيأتى بعد ٢٤ ساعة من تصنيعه .

(٦) وسائل الاتصالات غير المتقاطعة : نجحت أمريكا فى أن تطور نظم اتصالاتها بحيث يصبح أمام كل زميلين (فى كثير من المؤسسات التى أتيح أن أتأمل طريقة عملها) الفرصة للاتصال ببعضهم من خلال ثلاث وسائل على الأقل . ومع هذا فقد احتفظت هذه النظم بالقدرة على الخصوصية فى الاتصالات بحيث يمكن بشىء قليل من التحكم الفعال إبعاد بعض المعلومات عن متناول الكثيرين وإبقاء هذه المعلومات فى إطار السرية المطلوبة ، وسأذكر على سبيل المثال كيف تطورت نظم الاتصالات داخل القسم الواحد فى المستشفى الواحد إلى الحد الذى لا يستطيع أعضاء القسم ملاحقته ـ ولكنهم ساعة لجوئهم إلى هذه الوسائل يجدون من يدلهم عليها فى التو واللحظة ـ وقد صادفت فى كليفيلاند كلينيك كثيراً من الطرائف حين أتيح لى مثلاً أن أدل اثنين من هيئة الأطباء العاملين هناك على السبيل إلى معرفة ما إذا كان المريض قد أجرى فحص الدوبلر المقرر له الآن أم لا دون الذهاب إلى حجرة الفحص وذلك

من خلال نهاية من نهايات الكمبيوتر اكتشفتها معلقة فى مدخل المعامل كلها .

وهذه المعلومات لا سبيل إلى احتكارها لأن احتكارها يضيع وقت المؤسسة فى سؤال موظف مخصص لاحتكارها وتنظيمها بينما إشاعتها هى الأوفر . وعلى الطرف الآخر كانت هناك معلومات أخرى تتعلق بأمور بيروقراطية بحتة هى فى الواقع أقل أهمية بالنسبة للأطباء ، ولكن النظام لا يسمح باشاعتها وتداولها على هذا النحو ، ومثل هذه المعلومات يصعب على الجميع الوصول إليها إلا أصحاب الخصوصية !! والحديث عن مستويات المعلومات والتحكم فى تدفقها وسريانها يطول .. ولكنى أحب أن يتأمل القارىء معى كل سيناريو حرب الخليج ليتأمل هذه المستويات المتعددة تعدد المعلومات نفسها .

(٧) تقبل الأمر الواقع كواقع وكواقع فقط : أصبحت نفسيات الأمريكيين قادرة على تقبل الأمر الواقع ولكن فى حدود وجوده فحسب .. فالأمريكيون لا يخفون رءوسهم فى الرمال ولكنهم أيضاً لا يسلمون بالحقوق المدعاة من خلال الأمر الواقع .. وعند الأمريكيين قدرة على التجاوز عن الخطأ إذا ما كان فى الانشغال بالخطأ نواة لضياع وقتهم .. وتستطيع مثلاً أن تأخذ مكان غيرك فى الطريق بسيارتك فإذا هو هادىء صامت إذا استطعت أن تفعل ذلك فى غفلة منه ، ولكنه ثائر إذا لمحك وأنت تحاول ذلك فإن الأمر لا يزال بيده أن يمنعك . أريد أن أزيد هذه النقطة وضوحاً فأقول لك إن الأمريكيين يبحثون فى ثنايا الواقع عن بعض الحق ـ ولكنهم يقصرون هذا البحث على الأحوال التى يجدون أنفسهم فيها مضطرين لقبول الأمر الواقع ـ أو فى حاجة إلى وجوده أو قبوله .. فإذا ما انتفت الحاجة للاضطرار ، فالأمر الواقع عندهم ليس إلا شيئاً قابلاً للزوال . وأحياناً أخرى جديراً بالزوال . وأحياناً قليلة واجب الزوال بأيديهم هم !! .

(٨) تطوير المعتقدات : للحضارة الأمريكية اليوم قدرة بارزة على التحرر من الحكم والأمثال والأقوال المأثورة التى تحكم الحياة .. قارن هذا بعقلياتنا حين نحاول أن نتأمل المثل العربى القديم على أنه يكون فى بعض الأحيان أقرب إلى منظور «خدعوك فقالوا» وكيف نواجه الفشل مهما كانت خبراتنا وأدلتنا أقرب إلى الواقع و الصواب.

هذه هى مجلة النيوزويك الشهيرة تخصص صفحة كاملة لهذه الأقوال التى تلعب بها البورصة كل أسبوع .. ترتفع بأسهم بوش مرة وتنخفض بها مرة أخرى وهكذا تفعل مع كل الشخصيات ... مستخدمة الأسهم الصاعدة ↑ وأحيانا المتوازية ← → ثم تضع بعض الأمثال الشائعة فى ركن وتضع الأمثال الحديثة التى أسفرت عنها الظروف الجديدة . قد اختصر لك بعض الأمثال التى عدلتها النيوزويك فى عددها الصادر فى منتصف مارس ١٩٩١ حين تتناول شعار المظاهرة الأمريكية الذى كان يقول «لا دم من أجل البترول» ! فتضع بدلاً منه مثلاً جديداً يعبر عن الحقيقة التى انتهت إليها الحرب من الحصول على البترول بلا دم !! .

كان المثل No blood for oil فأصبح المثل Oil for no blood . هل رأيت تعبيراً ابلغ وأكثر قدرة على السخرية والتصوير معاً من هذا المثل المحور!! وهكذا تمضى النيوزويك فى إمتاعك بلاغياً وفى ذات الوقت تضاعف من حزنك على العراق وزعيم العراق!! وهكذا تصبح الحضارة الأمريكية (والأداء الأمريكى فى الحرب) قادراً على أن ينتفع دائما باتجاه الريح حسبما تأتى الريح لاحسبما كان يعتقد فى اتجاهها قبل أن تقلع سفينة الحياة أو سفينة الحرب .

تستطيع أن تبالغ فى التعبير عن هذا الخلق عند الأمريكيين فتقول إنهم لايعبدون إلا الواقع، ولا يعتقدون إلا فى الظروف ، ولكنك لا تستطيع مع هذا

أن تنكر على هؤلاء ثروتهم الضخمة من الأقوال والأمثال الكفيلة بهدايتهم فى بحار الظلمات التى تحيط بالبشرية من كل جانب.

(٩) استثمار اللغة : كنت أتحدث فى عشاء رومانسى جميل بين أساتذة رفيعى الثقافة عن فضل الأمريكيين على اللغة الإنجليزية . فقلت إن الأمريكين أعطوا هذه اللغة بُعد « البلاغة » بعدما أعطاها الإنجليز بُعد « الدقة » ... وأنه لكى نفهم هذا الفضل الأمريكى على اللغة الإنجليزية يكفينا أن ننظر الآن مثلاً إلى قائمة الطعام التى سيحضرها لنا القائم بخدمتنا فى المطعم ونتأمل الصياغات المختلفة للعبارات المفترض أنها تؤدى وظيفة محدودة جداً فى وصف أطباق هى فى الأغلب تقليدية جداً .. فقد كان المطعم أحد المطاعم المكسيكية الكلاسيكية . لم يكن الأساتذة الأفاضل فى حاجة لمثل هذا ليوافقونى على رأيى، بل كان عندهم من الفهم العميق ما دعاهم إلى إثبات موافقتهم التامة على مزاعمى هذه.

ولكنى وجدت نفسى أستفيض فى الحديث (بحرفية الأزهريين القدامى) عن بعض مظاهر البلاغة الطاغية فى استخدام الأمريكيين للغة .. فلا تكاد تجد إعلاناً واحداً لا يصلح لأن تضعه فى امتحان البلاغة لطلاب المرحلة الثانوية للبحث عما فيه من مجاز لفظى أو لغوى أو استعارة أو كناية أو تشبيه بليغ على أقل تقدير . دعك من الجناس والطباق والسجع والمحسنات البديعية التى لا تنتهى .. وقبل كل هذا هناك الأفكار التى لا جدال فى استحداثها حتى وإن جادلت بسهولة فى مغزاها وصحتها .

أحب أن آخذك معى بعض الشىء لأستكمل ما قلت ساعتها من أن الألمان قوم عظماء لا شك وقد أعطوا (شأنهم فى ذلك شأن العرب) لغتهم قدرة عظيمة جداً على "التعبيرية" حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم من دقة تعبيرية

بالغة .. ولكن لا الألمان ولا العرب استطاعوا أن يستغلوا اللغة كما استغلها الأمريكيون . فأنت ترى النص القانوني أو التاريخي في اللغة الألمانية أو اللغة العربية وقد صيغ صياغة ممتازة تسمح لك بعد تأمله أن تتبين الصواب من الخطأ، والمشروع من المحظور، والواقع من الخيال ، والمرغوب من المتروك . نعم تستطيع أن تصل إلى كل هذا من خلال الصياغة في بناء الجملة العربية أوالألمانية في نسيج النص اللغوي المتاح متى تأملته، ولكنك لا تستطيع أبداً أن تزعم أن هذا النص الألماني أو العربي قادر على أن يصدمك بما يريد بمجرد قراءته .. قارن هذا بما تجده من نفسك من هذا النص الأمريكي المفكك (غالباً) في صياغته حين تجد نفسك قد فهمت منه كل ما يريد هؤلاء القوم أن ينهوه بكل ما حملوا اللفظ من إيحاءات ربما لا يستطيع أن يحملها، ولكن الأمريكيين بطريقة ما جعلوه قادراً على هذه الوظيفة.

قد يضع الأمريكيون اللفظ فعلاً في غير موضعه . ولكنهم بهذا الوضع يوفرون على أنفسهم ثلاثة سطور كاملة من التعبير الجميل الدقيق! . وقد يضع الأمريكيون بعض كلمات وراء بعضها كأنها معطوفة على بعضها ، ولكنهم لا يقصدون إلا التعبير عن صراعات بين الأفكار التي تمثلها هذه الكلمات من دون أن يزعموا لأنفسهم ـ حتى لحظة التعبير ـ قدرة على فهم علاقة هذه الصراعات. ولهذا فهم يكتفون بالفصل بين هذه الكلمات وبين ما تمثله من معان بتلك الشرطة البسيطة .

أريد أن أقول إن الأمريكيين أخذوا اللغة على أنها وسيلة من وسائل النجاح في الحياة والتعامل اليومي واستغلوها أوسع استغلال (ولك أن تقول أبشع استغلال) ربما تبسطوا معها إلى الحدود التي يمكنك معها أن تقول إنهم ابتذلوها تماماً ، وربما تكون رومانسياً مثلي فتقول إنهم أعطوا لغة الإنجليز البلاغة بعد ما أعطاها الإنجليز الدقة . ولكنك في كلا الحالين تبقى موافقاً على أن هناك فرقاً كبيراً بين هذه اللغة الإنجليزية في تلك الجزر البريطانية وبين

هذه اللغة الأمريكية فى القارة الواسعة المسرعة القادرة على تحطيم كل شيء من أجل أى شيء يتصادف أن يكون هو الشيء المراد ولهذا فلا تندهش إذا سألك واحد من الأمريكيين ذات يوم عما إذا كنت تتكلم اللغة الأمريكية !! .

(١٠) **نمذجة السلوك الإنسانى** : بلغ تقدم العلوم الإنسانية والاجتماعية فى جامعات ومعاهد الولايات المتحدة الأمريكية الحد الذى مكن من اتمام دراسات متقدمة حول كثير من الموضوعات التى تبدو لنا وكأنها محكومة تماماً بالعامل الشخصى والعامل الوقتى، وأنه لا مجال أمام العلم لدراستهاعلى نحو تفصيلى .. من ذلك أن جامعة هارفارد بالاشتراك مع عدد من الجامعات القريبة منها مثل Tufts و MIT أتمت مشروعاً بحثياً أسمته " مشروع مفاوضات هارفارد" وذلك من خلال دراسة قرارات الصراع نظرية وتطبيقاً ، وكان من أبرز نشاطات هذا المشروع على سبيل المثال تطوير أفكار عملية الوساطة ذات النص الواحد التى استخدمتها أمريكا فى مفاوضات كامب ديفيد من أجل السلام فى الشرق الأوسط (١٩٧٨) حيث كان هناك نص واحد أُجريت عليه تعديلات كانت كفيلة بجعله مقبولاً من الطرفين .

ولعل مما ساعد هذه الجامعة التى هى من أبرز مؤسسات الحضارة الأمريكية على النجاح والتقدم فى مثل هذه الدراسات ذلك الصبر والدأب فى تعمق دراسة الجوانب المختلفة من النشاط الإنسانى السيكولوجى والعقلى والاجتماعى إلى الحد الذى جعل التنبؤ بردود الأفعال الخاصة جداً ممكنا جداً.

وعلى هذا النحو استطاعت أمريكا وحضارة أمريكا أن تتعامل فى سهولة ويسر مع كل الأطراف فى حرب الخليج بدءاً من الرئيس صدام حسين ومروراً بكل الرؤساء الآخرين ، مايجور ، و ميتران ، وكافيو ، ومبارك ، وكول ، وفهد والأسد ، والشاذلى بن جديد وأوزال، و انتهاء بالرئيس الإيرانى رافسنجانى

الـذى كـان من الصعب على أى منجم الـوصـول إلى تنجيمة محتملة لموقفه وموقف إيران فى كثير من لحظات الحرج الظاهرة فى حرب الخليج.

(١١) التفكير الرياضى ـ البيولوجى : و مع أن الأمريكيين قوم عمليون جداً فإنهم فى دراسة السلوك الإنسانى قوم نظريون جداً .. ثم هم فى الوصول إلى قـرار أصحاب قـدرة على البعـد عن القرار الـواحـد، والتأكيد على البـدائل المتعددة .

سأنقل لك فقرتين من كتـاب اطلعت عليه منذ مـدة فى الإنجليزية، وقـرأته كـاملاً خـلال هذا الأسبـوع بعد أن وجـدته لحسن الحظ قـد صدر فى اللغـة العربية. الكتاب اسمه " نحو التآلف والاتفاق أو بناء علاقات إيجابية " مؤلفاه هما روجر فيشر وسكون براون ـ من تـرجمة الدكتور محمد محمود رضوان وقد أشرفـت الجمعية المصريـة لنشر المعرفـة والثقافـة العالمية بالقـاهرة على ترجمته وإخراجه ، ونشرته الدار الدولية للنشر والتوزيع (١٩٩١) .

الفقـرة التى يطيب لى أن أدلك عليهـا تتحـدث عن اختـلاف الـرؤى بين مستوى المدير الأوسط ومستوى المدير التنفيذى الأعلى. ليس فى الفقرة شىء جديد عليك.. أنت تعرف كيف يفكر المدير الأوسط وكيف يفكر المدير التنفيذى الأعلى فى ذات الموضوع .. لكنى أدعوك إلى تأمل قـدرة الحضارة الأمريكية على وضع كل هـذا فى جـدول وبنـاء دراسـات نفسية واجتماعيـة عليـه، ومـدى استغلالها بعد ذلك لهذه الحقائق فى متن السياسة.

المدير الأوسط : الرئيس يغير سياسته كما تغير الحرباء جلدها .

المدير التنفيـذى الأعلى : الذين يعملـون معى يستجيبون لتـوجيهاتى ببطء.

المدير الأوسط : هناك كثير جداً من الأعمال الكتابية فى هذه المؤسسـة.

المدير التنفيذى الأعلى : العاملون يتأخرون فى تقديم تقاريرهم الشهرية.

المدير الأوسط: أنا أعمل معظم الفترات المسائية وعطلات الاسبوع ولكن رئيسى يغادر العمل فى الساعة السادسة مساء.

المدير التنفيذى الأعلى : حينما كنت فى مستواهم كنت أعمل ليلاً ونهاراً لكى أحصل على ترقية .

المدير الأوسط : هذه الشركة تكافىء الخبرة الغريبة ، يحضرون غرباء ليراسونى .

المدير التنفيذى الأعلى : العاملون الذين ندربهم يهجرون من أجل المنافسة .

المدير الأوسط : ربما أستطيع أن أحصل على دخل أكبر فى مكان آخر.

المدير التنفيذى الأعلى : إننا ندفع أجوراً لعمالنا أعلى بكثير مما كنت أتقاضى وأنا فى سنهم .

المدير الأوسط: عندما أبلغ مستوى أعلى سوف أكون أكثر تحكماً فى حياتى.

المدير التنفيذى الأعلى : ليس لدى مرءوسىّ فكرة عن الضغوط التى تقع علىّ.

المدير الأوسط: إننا لا نسمع عن السياسات الجديدة أبداً إلا فى اللحظة الأخيرة .

المدير التنفيذى الأعلى : إننى لا أسمع من العاملين معى عن مشكلة يواجهونها إلا فى اللحظة الأخيرة .

المدير الأوسط : إن رئيسى لا يثق بى ؛ إنه دائماً يظر من فوق كتفى.

المدير التنفيذى الأعلى : إننى أحطم ظهرى لكى أقضى وقتاً مع العاملين معى وأدربهم . إنهم لا يقدرون ما أقوم به من عمل .

الفقرة الثانية تحتاج منك إلى خلو البال حتى تتأمل طبيعة المشكل فيها وتصل إلى التفهم الكامل لما قد نسميه نحن فى حياتنا العام بحساب الأرباح والخسائر فى علاقة ثنائية بسيطة جداً ... انظر كيف يستطيع هؤلاء «النظريون» أن يضعوا مثل هذا النموذج «الحاد» للصراع «الفعال» فى علاقة ثنائية كهذه العلاقة .. دعك من كل هذا التقديم الذى أقدم به الفقرات واقرأها على مهل .

لقد قارن مُنظِّرو الالعاب ديناميكية العلاقة الثنائية بنموذج يطلق عليه «مأزق المسجونين» ، ففى إحدى الأمثلة القصصية لهذا النموذج هناك مسجونان متهمان بارتكاب جريمة خطيرة وقد وضع كل منهما فى الحبس الانفرادى ، وكان المدعى على يقين من أنهما مذنبان ، ولكن كانت تعوزه الأدلة الكافية لإدانتهما ، وهكذا أخبر كلاً من المتهمين أن أمامه اختياراً بسيطاً : أن يعترف ، أو لا يعترف ، فإذا تعاون المسجونان معاً ولم يعترف أى منهما، فإن كلا منهما يمكن أن يتوقع الحكم بالسجن سنة واحدة جزاء حيازة سلاح بطريقة غير قانونية ، أما إذا اعترفا كلاهما فإن كلاً منهما سيحكم عليه بالسجن ثمانى سنوات جزاء الجرائم الخطيرة ، أما إذا اعترف أحدهما ولم يعترف الآخر فإن رافض الاعتراف يمكن أن يتوقع الحكم بالسجن عشر سنوات ، ولكن الذى اعترف سوف يلقى معاملة رفيقة باعتبار أنه «شاهد الملك» ومن ثم يمكن أن يتوقع أن يطلق سراحه ويوضع تحت المراقبة البسيطة.. هذا مع العلم بأن السجينين لا يُمكّنان من أن يتصل أحدهما بالآخر . والآن ، فكل من السجينين يواجه مأزقاً : « إذا كان الآخر سيعترف ، فمن الخير لى أن أعترف كذلك ، إذ أن ثمانى سنوات أفضل من عشر ، أما إذا لم يكن سيعترف فمن الخير لى أن أعترف أنا ، إذ أننى — حينئذ — سوف يطلق سراحى برفق ، وهكذا يبدو أنه من الخير لى أن أعترف بغض النظر عما يفعل

الآخر ، ولكن إذا اعترفا كلانا فإننا ـ معاً ـ سنكون أسوأ حالاً مما لو رفضنا ـ معاً ـ أن نعترف» .

كان هـذا هو مأزق المسـجونين فهل تسـتطيع الآن أن تـوافقنى على أن هناك ما يسـمى بالتفكير الرياضى البيولوجى الذى استطاعت هذه الحضارة الامريكيـة حتى الآن أن تجد فى صيـاغته وأن تجيد وإن لم تكـن قد بلـورته تماماً بعد !! .

ثم هل تستطيع بعـد ذلك يـاسيدى أن تـوافقنى على أن هـذا الجانب من الحضـارة الأمريكية كان ذا شـأن عظيم فى حرب الخليج .. هل تأذن لى ياسيدى أن أختم هذا الفصل بـالفقرة الثانيـة التى وعدتك بك وهى فقرة من خـرافات ايسوب الشهيرة عن الريح والشمس «ذات مرة ثار نزاع بين الريح والشمس ، أيهما أقوى وأشـد . وفى سبيل إنهاء الجدال تحدت الشمس الريـح فى مباراة · أيهما يستطيع أن يحمل عابر طريق على أن يخلع معطفـه فهو الأقوى . كانت الشمس واثقة أنها ستفـوز ، ولذلك تـركت الريح يأخـذ الفرصـة الأولى ، أما الشمس فقد اختفت وراء سحابة تنتظر ، وأما الـريح فقد أثار عاصفة ثلجية ، ولكن كلما اشتد عصف الريح تشبث عابر الطريق بمعطفه حول جسده ، وفى النهـايـة لم يسع الـريح إلا أن يستسلم ، وحينئـذ خـرجت الشمس من وراء السحابة وبدأت تضـىء وترسل أشعتها بكل قوتها نحو عابر الطريق الذى بدأ يحس الحرارة والدفـء ، وإذ أخـذت الحرارة ترتفع رويداً رويـداً خلع معطفه وجلس فى الظل ليستريح» .

الفصل الثالث

كليفيلاند : المدينة والمجتمع

(١)

حوالى ١٧٦٥ اى منذ اكثر من مائتى عام كان الجنرال جورج واشنطن اول من تنبأ بهذه المدينة . تعبير غريب طبعاً أن تقرأ فى تاريخ مدينة ان فلاناً هو أول من تنبأ بها . لكننى لا أجد أدق من هذا اللفظ لأعبر عن أن واشنطن لاحظ أن مصب نهر كايهوجا فى بحيرة إيرى يناسب مجتمعاً تجارياً سريع النمو . بعدها بحوالى ثلاثين عاماً وفى ١٧٩٦ جاء موسيس كليفيلاند بفريق من شركة كونكتيكت للأراضى واختار موقعاً كان يسمى بالاحتياطى الغربى وأقام عليه نواة كليفيلاند .

فى ١٨١٠ أصبحت هذه المدينة هى المجتمع الرئيسى فيما يسمى بإقليم كايهوجا. أحب هنا أن أذكر لك اننى أترجم County بإقليم . وأصل الكلمة فى الإنجليزية فيما يبدو مأخوذة من الكونت ، فالكلمة على هذا تشير إلى ممتلكات الكونت . وقد تترجم بمقاطقة أو إقليم و لعلها هى المرادف للإقطاعيات والابعاديات . و فى أوائل القرن التاسع عشر بدأت صناعة السفن فى هذه المدينة. كان لا بد بعد ذلك من تطوير الاتصال النهرى البحرى لهذا المجتمع

الجديد ولا بد أن نفهم أن كثيراً من التحضر الذى أصابته أمريكا كان نتيجة سعيها الحثيث فى تطوير مرفق النقل والمواصلات. والطرق السريعة والطائرات والمطارات والتليفونات والفاكس والبريد الجوى الأمريكى منذ أوائل القرن التاسع عشر . خذ مثلاً على ذلك إنشاء قناة إيرى فى ١٨٢٥ ثم توصيل هذه القناة بنهر أوهايو نفسه بعد سبع سنوات فى ١٨٣٢ . وما صاحب ذلك من ازدهار صناعة السفن وتجارتها فى مجتمع كليفيلاند الجديد. فى عام ١٨٣٦ بلغت كليفيلاند مجداً عظيماً هكذا يرون أو يروون ... وذلك: أنه فى ذلك العام وصل تعداد سكانها إلى حوالى ستة آلاف نسمة !!. وها هى كليفيلاند فى أواسط القرن التاسع عشر تبدأ فى تشغيل ميناءها فى حوالى ١٨٥٢ وتبرز فى أثناء الحرب الأهلية كمركز صناعى هام وفى ١٨٧٠ تتأسس فيها بفضل جون روكفلر شركة ستاندرد الشهيرة للبترول وتبدأ معالم المدينة والتحضر والحكومة المحلية تأخذ طريقها إلى كليفيلاند فى مطالع القرن العشرين. وفى أثناء الكساد العالمى العظيم فى الثلاثينات بنت كليفيلاند أول مشروع للإسكان الشعبى فى الولايات المتحدة الأمريكية.

فى السبيعينات حظيت كليفيلاند بشهرة اقتصادية سلبية حين أصبحت أول مدينة أمريكية كبيرة تعانى الإفلاس منذ الأزمة الاقتصادية فى الثلاثينات، وتحطمت صناعة السفن فى كليفيلاند بسبب ارتفاع اليد العاملة ، ولكنها سرعان ما استعادت وضعها فى الثمانينات وأصبحت ثانية من أهم المراكز الأمريكية . هذه هى كليفيلاند ـــ عاصمة إقليم من أقاليم أوهايو ، و تبقى لأوهايو عاصمتها كولومبوس.

(٢)

من الطبيعى أن أعدد لك الجامعات فى هذا الإقليم (لا فى الولاية كلها) لعلك طالعت اسم جامعة كيس ويسترن. هناك كذلك جامعة كليفيلاند الحكومية

الحكومية (أجدنى مضطراً إلى ترجمة State فى كل اسم جامعة تحتوى هذا اللفظ بكلمة الحكومية وكنت فيما مضى أتبع ما اعتدنا عليه فى مصر من ترجمتها بجامعة ولاية كذا . مع انه لا توجد ولاية مثلاً اسمها كليفيلاند.). تمثل هذه الجامعة اندماج جامعة كاس وجامعة ويسترن ريسيرف الذى تم عام ١٩٦٥ ولكن تاريخ هذه الجامعة يعود إلى حوالى ١٨٢٤.

تأتى إلى الكليات العليا :

بالدوين ولاس	أنشئت عام ١٥٤٨
كايهوجا	عام ١٩٦٣
ديك	عام ١٨٤٨
معهد كليفيلاند للفنون	عام ١٨٨٢
معهد كليفلاند للموسيقى	عام ١٩٢٠

(٣)

« البلان ديلر » هى كبرى جرائد أوهايو ، وهى الجريدة التى استعيض بها هنا عن الأهرام القاهرية كل صباح . وتقع هذه الجريدة فى مائة صفحة على الأقل كل يوم ، فلا تقل صفحاتها الرئيسية عن ٥٠ صفحة عدا ملاحق الاعلانات الملونة التى تبلغ ثلاثة أضعاف هذا الحجم ، تتضخم إلى اكثر من هذا بكثير فى أيام الأحاد بالطبع ، ولكن صفحات كاملة من هذه المائة مخصصة بالطبع للإعلانات ؟ التى لا بد أن تكلفتها أقل بقليل من التكاليف المناظرة فى مصر. وإلا فكيف بالله عليك تجد صفحة كاملة قد أفردت للإعلان فقط عن مسحوق غسيل وأنواعه وعبواته المختلفة مثلاً .

استطيع أن أقول لك اننى كنت اطالع هذه الجريدة كل يوم على مرتين ففى حوالى الساعة السابعة وخمس دقائق وقبل أن تتحرك سيارة ربه البيت اطالع

بسرعة أربعة أو خمسة مواضع من الجريدة . أطالع آخر تطورات الحياة الدولية وبصفة خاصة حرب الخليج . أو قل بقايا حرب الخليج من حرب أهلية فى العراق إلى أسرار تتكشف فى الولايات المتحدة ، هذا فى عناوين الصفحة الأولى ، ثم أطالع فى نهاية الملزمة الثانية من الصحيفة أنباء الطقس وموعد غروب الشمس أى موعد الإفطار الرمضانى!! وفى الملزمة الرابعة ألقى نظرة على السعر الخاص بالجنيه المصرى أمام الدولار فى الجزء المخصص لأسعار العملات الأجنبية ، والجنيه المصرى على أية حال عملة أجنبية بالنسبة للدولار . دعك من كون العملة الأجنبية عملة صعبة أم لا فهذه تعبيرات مصرية سيكولوجية!! وفى الإعلانات المبوبة ألقى نظرة على الركن الخاص بأجهزة الكمبيوتر .. وفى صفحة برامج التليفزيون ألقى نظرة أخرى على برامج القنوات الرئيسية، وكل نظرة من هاتيك قد لا تكلفنى عشرين ثانية كما تعلم. ولكن تصفح المواضع المختلفة حتى تصل إلى ما تريد هو ما يأخذ منك الوقت.

بعد عودتى من المستشفى أقرأ على مهل هذه الجريدة المحترمة ، صياغة الصفحات الأولى لا تختلف كثيراً عن صياغة «الأخبار» القاهرية ، أما العناوين فأميل إلى «الجمهورية» منها إلى الأهرام أو الأخبار. أسماء المحررين والمراسلين تحظى باحترام تام من حيث أبناطها والعناية بها. وكثير من المواد لا تحمل توقيعاً على الرغم من إنها عصارة فكر وجهد مبذول. صفحة الرأى فى الداخل لها رئيس تحرير مسئول ، واسمه موضوع فيما يسمى بالترويسة مع الناشر والمدير العام ورئيس التحرير. بل إن الترويسة نفسها موضوعة أعلى صفحة الرأى ولا فى الصفحة الأولى . الاشتراك فى الجريدة أسبوعى، ويبدو أن الاشتراك السنوى الموجود عندنا لم يعد يناسب روح الحياة السريعة المتغيرة وإن كان سيظل مناسباً لمصر..

يعجبني في هذه الصحيفة اهتمامها البارز بالكتب الجديدة وبالحياة الثقافية على وجه العموم، وللصحيفة ملحق أسبوعي لبرامج الإذاعة والتليفزيون يتناول كل شيء من البرامج بالتفصيل، ثم إذا هي تتكرر كل يوم في الصحيفة في صفحة كاملة نصفها الأيمن للقنوات السبعة والعشرين (تسعة فوق تسعة فوق تسعة) والنصف الأيسر يلقي الضوء على برامج مختارة وعلى برامج الراديو .

وأحب أن أذكر لك أنني خرجت من مطالعة هذه الصحف الأمريكية بانطباع أن إعلاناتها إعلانات وقتية بمعنى أنها تؤدي الغرض الوقتي ليس إلا. في أوكازيون يوم السبت تجد صوراً لكل ما هب ودب، والأسعار فوقها، واسم المحل وعنوانه، وكان الله يحب المحسنين . طبعاً الصور منظمة وجميلة والأسعار مكتوبة بأبنساط بارزة ولا بأس من فتاة تضحك أو طفل يصيح .. ولكن الإعلان كله على بعضه من لزوم الشيء. مجرد خطوط ، ومجرد تنسيق، وليس هناك مساحة لما يسميه فنانو إخراج الصحف براحة العين، وإنما هو استغلال للمساحة المتاحة بطريقة بدائية. طبعاً هم يعرفون ذلك وأعتقد أنهم يأخذون الإعلان من صاحبه كما يجهزه، هذه مساحة ٣٠×٥٠ مثلاً فالمعلن يحضر لهم الإعلان جاهزاً إلى درجة أن الأفلام مفصولة ألوانها، وهم يطبعونها هكذا.

ولا أبالغ إذا قلت لك إنهم في جريدة السبت أو الأحد يتحفونك بعشرات الصفحات الإعلانية الملونة ذات الأحجام المتنافرة . وليس لها أرقام اللهم إلا تسلسل خروجها من ماكينات التوضيب فوق بعضها.

والعاملون في الصحافة يفهمون المسألة في منتهى البساطة فالصحيفة تستغل انتشارها وجمهورها بأن توزع هذه الإعلانات لأصحابها مقابل

خروجهـا مع الصحيفـة من دار الجريدة ودخـولها معها البيـوت. والمعلنون بالطبع سعداء بما يدفعون للجريدة فهم سيطبعون الإعلان أيما كان الوضع. وسيدفعون غالياً من أجل توزيعـه بالبريد أو من أجل بث الصبية الصغار به على أبواب المساجد والمدارس كما تفعل البلاد النامية.

وقديماً ، و فى مطلع الصحافة المصرية وقبل حوالى قرن من الزمان كان فى مصر صحيفة توزع بـالمجان إذ تعتمد تماماً على الإعلانات. هنـا فى كليفيلاند توجد أكثر من صحيفة من هـذا النوع. ولكنى أعتقد أنه لا يزال من الاوقع أن تكون الصحيفة بثمن رمزى. ومع هذا فإن جيلاً من مديرى الصحف فى مصر لا يكاد يقـدر نعمة «الثمن الرمـزى» على الصحيفة ويريـد أن يشتط بأسعار الصحف ما أمكنـه ذلك مع أنهم يعلمون تماماً أنه مهما رفع سعـر الصحيفة فلن يفى بتكاليفها.

يعجبنى فى «البـلان ديلـر» أيضاً تلك الكلمات الرصينـة التى تتضمنهـا صفحة الرأى بل عناوين هذه المقـالات نفسها حيث التعقل والنظـرة البعيدة بعيداً عن عبارة الـرأى الشائع . وعبادة الرأى الشائع مأساة خـاصة إذا كان هو رأى الشارع.

ويعجبنى أيضاً أن الجريدة لا تستنكف شـأنها شأن الصحف الأمريكية أن تعطى لحرب الخليج خمس صفحات أو ست صفحات كاملة ، ولكنى أتألم كثيراً للصور التـى تنشرها عن خراب الكـويت أو تشرد الأكراد أو ظلـم نظام العراق لشعب العـراق ولجيش العراق . يعجبنى ايضـا أن الجريدة خصصت للكاريكاتير صفحـة وجزءاً من صفحة أخرى وأنها تنشر صوراً كـاريكاتيرية لأكثر من عشرين رساماً وكنت أتعجب هل كلهم معينون ويتقاضون رواتب أم مثل الـذين يـراسلون مصطفى حسين فى الأخبـار ؟ وحين زرت الجريـدة

سألتهم وعرفت أن هناك نقابة لرسامي الكاريكاتير وأنهم يشترون من هذه النقابة هذه الرسومات.

توزع « البلان ديلر » ٤٣٠ ألف نسخة يومياً وفى الآحاد يرتفع توزيعها إلى ٥٧٠ ألف نسخة، و هى بذلك الجريدة الخامسة عشرة على مستوى الولايات المتحدة . مما يعنى نجاحاً حقيقياً لها إذا تذكرت أن كليفيلاند هى تقريباً المدينة الثانية عشرة من حيث ترتيب السكان. لهذا فإن البلان ديلر فخورة بأنها الأولى فى الاستحواذ على سكان منطقتها إذ يقرأها ٥٨٪ من قراء الصحف فى الاقليم الذى تصدر فيه . وهى الأولى كذلك فى الاستحواذ على سكان منطقتها فيما يتعلق بعددها الأسبوعى حيث يقرأها حوالى ٧١٪ من هؤلاء . وفى هذه المكانة تليها بفارق بسيط جداً (٧١٪ أيضا) الواشنطن بوست.

ومبانى البلان ديلر تم بناؤها فى ١٩٢٠ على سبعة هكتارات . فى خطة المستقبل أنها ستمتد إلى ٥٠ هكتار إضافية.

ويعمل فى هذه الصحيفة ألف وثمانمائة فقط من بينهم ٢٧٠ صحفى ومعلق وسأذهلك حين أقول لك إن كل هؤلاء الصحفيين يعملون جميعاً فى صالة واحدة تضم ما يزيد على ٢٠٠ كمبيوتر !!.

طبعاً هذه التى اسمها صالة هى الدور الثانى كله . ربما تبلغ مساحتها مساحة أكبر من صالة تحرير الاهرام ولكنها ليست بجمال صالة تحرير الأهرام.. إنما هى مزدحمة ومكدسة ومُقبضة تماماً أيضاً .

منذ ثلاثين عاماً كان عدد العاملين فى البلان ديلر ١٨٠٠ أيضاً ، ولكن مع اختلاف النوعية. فقد كان هناك ٥٠٠ عامل فى قسم اللينوتيب وحده وكان

هناك ٢٥ آخرون فى قسم السيترينوتيب. اليوم ليس هناك أحد فى هذين القسمين لانه لم يعد لهما وجود

مدير الشئون العامة يكمل هذا العام ثلاثين عاماً من العمل فى البلان ديلر، وهو يرى أن فى كليفيلاند مؤسستين عالميتين : الكلينيك التى يأتيها الناس من كل مكان، وشركة البترول الكبرى التى لها فروع فى كل دولة كأنها سفارات . وهو سعيد جداً بالعلاقة بين كليفيلاند كلينيك وبين الصحيفة. وهو يروى لى كيف ضيعت الصحيفة أكبر خبطة صحفية فى العام الماضى حين حصل محررها على تصريح من د.عاطف صدقى رئيس الوزراء (الذى كان يجرى فحوصاً فى كليفيلاند كلينك) بأن مصر ستحارب فى أزمة الخليج مع الحلفاء . ولكن رئيس التحرير المسئول يومها لم يبرز التصريح لا لشىء إلا لأن الذى حصل عليه محرر إقليمى فى كليفيلاند. وفى اليوم التالى كانت عناوين صحف العالم كلها مخصصة لهذا الموضوع بعد تصريحات الرئيس مبارك .

كان من حظى حين زرت البلان ديلر وطفت بين أرجائها أن التقيت بكبير المحررين وبرئيس القسم الفنى وبمدير الانتاج وقد أطلعونى جميعاً على كل خططهم وماضيهم ولكنى فيما يتعلق بكتابى هذا لا أجد نفسى قادراً على التوسع فى رواية تفصيلات العمل الصحفى وفى ذات الوقت لا أستطيع منع نفسى من تسجيل بعض اللمحات السريعة عن هذه الجريدة . و تضم هذه الجريدة كما قلت لك ٣٧٠ صحفياً وليس فيها إلا صالة تحرير واحدة تتسع لكل هؤلاء ولحوالى ٢١٠ كمبيوتر شخصى أمامهم يستطيعون من خلالها الاتصال بالمندوبين وكتابة ما يريدون وتنظيم ما يسمى بسكرتارية التحرير . مطبعة الجريدة لا تبدأ العمل إلا بعد التاسعة مساء وتستمر حتى الرابعة والنصف صباحاً ـــ وفى أيام السبت والأحد تبدأ المطابع مبكرة منذ السادسة لطباعة الملاحق!!

(٤)

فى كليفيلاند أعرق أوركسترا سيمفونى أمريكى داومت على الاستماع إليه فى كل أيامى من خلال الراديو وإن لم أسعد بحضور إحدى حفلاته ولكننى حضرت مع أحد الزملاء الفرنسيين حفلة موسيقية فى جامعة كيس ويسترن الحفلة تحت شعار «موسيقى الجاز فى الشابل» .

الفرقة مجموعة من طلاب الجامعة . اصطلاح طلاب الجامعة هنا لا يقتصر مثل مصر على طلاب مرحلة البكالوريوس ولكنها تعنى كل الطلاب طلاب الماجستير والدكتوراه وهذا الفرنسى الذى يقود الفرقة طالب ماجستير. وقد بدأت الحفلة فى الثامنة و انتهت حوالى العاشرة .. أما عدد الحاضرين فقليل.. ولكن أحداً منهم لا يسلك سلوكاً يجعله أقل من مستوى الحضور .. العازفون سعداء .. والمستمعون سعداء .. وينتهى الحفل فينصرف كل ومعه سعادته إلى حال سبيله .

(٥)

هل ذهبت الفلاتس ؟ لا بد أن تذهب الفلاتس ما دمت فى كليفيلاند! أم لم تذهب الفلاتس بعد!! ستكون فى غاية السعادة إذا ذهبت الفلاتس. هكذا تعاقبت التعليقات مرة بعد أخرى من العائلة التى أسكن بيتها ومن الزملاء الأطباء فى الكلينك، بل ومن الزميل الأرجنتينى الذى كان مثلى يسكن فى هذا البيت فى أغسطس الماضى وجاء لزيارتنا ليوم واحد.

قلت لنفسى لا بد أن أذهب إلى الفلاتس تحفة كليفيلاند، الطريق طويل ربما لأنى قادم من شرق المدينة، والفلاتس فى غربها ولكنه بالفعل بعيد.

القنطرة التى تعبر النهر جميلة إلى أقصى حد ، فخامتها لا توصف، تأمل أن هذه المعجزات بنيت منذ مائة وخمسين عاماً ونحن فى مصر لا نزال ننتشى عند افتتاح كوبرى هنا أو هناك على النيل العظيم ونقول ساعتها : ويعد هذا أطول كوبرى على النيل، وأحياناً أعرض ، وأحيانا نتواضع فنقول أنه يعبر النيل عند أعرض نقطة فى ممره . كوبرى بنها على النيل التى تغنى له داليدا وهى فى باريس « على كوبرى بنها يانور عينى منديل حبيبى طرف عينى» يتبرأ تماماً من أغنية داليدا ويؤكد للرائح والغادى أنه لم تقع عليه هذه الحادثة أبداً ، وأنه إذا كان ولا بد أن منديلاً طرف عين محبوبة فقد يحدث ذلك على كوبرى آخر إلا كوبرى بنها الاستراتيجى الذى تقف أمامه السيارات فى حالة انتظار وجمود ربما لنصف ساعة .. التيار واقف إذن والمنديل لا يتحرك وبالتالى لا يطرف عيناً حتى وإن كانت عين داليدا .. كوبرى بنها هذا العظيم الذى كان أعظم كبارينا استراتيجية ، الذى بنى فى عهد الملك فؤاد حوالى ١٩٣٢ يتواضع أمام هذا الكوبرى البسيط على نهر بسيط فى بلد بسيط ومع هذا فنحن فخورين باننا دولة زراعية .. وبلد النيل . وأن عندنا طرقاً زراعية وطرقاً تعبر النيل.

قد تظننى ياسيدى فى حاجة الآن إلى الاعتذار عن هذا الاستطراد الذى لامبرر له .. لكن عذرى أنى كنت أحب أن أصور لك حالتى النفسية وأنا ذاهب إلى الفلانتس بأقرب ما يكون التصوير إلى الحقيقة .. وها أنت ترانى الآن وقد انتابنى الشعور بالتواضع .. وقلت لنفسى والآن سنرى الفلانتس حيث تتواضع أمامه كل فنادقنا وكازينوهاتنا ونواديا التى على النيل الساحر فى القاهرة.

لن أحدثك عن الفلانتس الذى كانت مضيفتى فخورة به وهى تطأ الأرض ولكنى أؤكد لك أن أى مقهى نيلى متواضع فى أى قرية من قرى مصر العامرة

أكثر حياة ورقياً وفناً وفندقة من هذا الفلاتس الميت الصامت .. عند هذا الحد زال تواضعي وبدأت أفهم لماذا يقال إن مصر هي بلد السياحة والمتعة الجميلة. هي البلد الذي لا بد للسائح أن يراه حتى وإن كانت الكبارى التي فيه لاتطرف عيون المحبوبات ، فإن الكباريهات تطرف عيون المحبوبات . سوف تتهمني ياسيدي بالتحامل على الفلاتس قرة عين أهل كليفيلاند .. لك أن تتهمني ولكني سأذكر لك كل مزايا الفلاتس.

هناك في جانب واحد من الفلاتس توجد شجرة مستعارة من ذات الورق العريض يسمونه Bird of pardise إلى جوارها شجرة أخرى من نوع Oleander هذا الشجر يحتوى على مادة مخدرة .. ربما لا يعرف الطيبون من أمثالك وأمثالي أنه يحتوى على هذه المادة المخدرة ويكتفون بالإعجاب بشكله المتناسق.. أما أن الشجرتين مستعارتين فلأننا كنا في مارس ولا يزال الجليد هو صاحب السيادة .. ولما تبزغ شمس الربيع بعد ...هذه ميزة من مزايا الفلاتس .

الميزة الثانية إن للفلاتس مساحة واسعة لانتظار السيارات. ولكن هذه الميزة تتبخر (أو تتضاعف في نظرك) إذا علمت بقية قصتها .. فهذا الجراج يديره مجموعة من(البلطجية) المحترمين .. وصلنا إليهم بسيارتنا فإذا بهم يقولون : لا توجد أماكن بينما الأماكن فسيحة أمام ناظرينا .. فتحت مضيفتي محفظتها الصغيرة ، وشاهدوا أوراق النقد من فئة الدولارات الخمسة .. أو قل على طريقة المصريين من فئة الشلن .. فقال هؤلاء إذا كان الأمر كذلك فهناك أماكن .. أخذنا التذكرة ومضينا بالسيارة قرب باب الفلاتس هنالك أقبل علينا من كشكه الزجاجي حارس آخر .. أخذ السيارة منا بعد ما أخذنا تلفونها. و انطلق بها يضعها حيث يريد للنظام أن يتم .. فلما عزمنا على المغادرة لمحنا من كشكه الزجاجي واتى لنا بالسيارة حيث وقفنا بالباب.. كان الدكتور رفعت

حـواس فى محطة مترو الأنفـاق بباريس كثيراً مـا يلفت نظرى إلى حقيقـة أن المترو يقف بحيث يكـون باب عـربة الدرجـة الأولى (التى هى فى الوسـط منه دائماً) أمام فتحة الرصيف مباشرة بحيـث لا يتعب (سعادة البيه) فى ملاحقة عربات المترو!! . الميـزة الثالثة فى الفلاتس أنـه لا يتقاضـى منك إلا الإتاوة التى هى غير كافية لأن تكون حداً أدنى لفرد واحد!! .

(٦)

صـحيح أن فى كليفيلاند وحولها كثيراً من الأحيـاء الراقية والمواقع المتميزة شبـه الآمنة ولكن كل ذلك لن يبقى فى ذهنـك إلا مرتبطـاً بهذا الرعب من هـذه الجرائم التى لا تستحى وهى تفـرض نفسها كـل صباح فى عنـاوين صحف الصباح وكل ساعة فى مقدمات نشرات التليفزيون المحلية.

كان أحـد أصدقـائنا قـد جاء إلى كليفيـلاند مشبعـاً بما فيه الكفايـة بكل القصص الحقيقية عن الإجـرام هناك .. وحين وصل فى حوالى السـاعـة الثالثة صباحـاً إلى ما كـان يسمى بفندق الجامعـة .. وجد حـارساً أسـود ليس من سلطته أن يتيح لزميلنا أى شيئـاً إلا أن يبقى مع حقائبه فى المدخل حتى يأتى موظـف الصباح ! صاحبنـا يسأل الحارس هل هناك جـرائم قتل ، والحارس يجيبه نعم كثيراً مـا أكون فى طـريقى فيحدث هذا أمـامى هنا مثـلاً، والرعب يستبـد بصاحبنـا ولكن مـاذا فى وسعه أن يفعـل ؟ يستديـر الحارس فيلحظ صاحبى أن فى جيبه شيئاً ما يبرز فى نهايته قبضة معدنية تماماً كتلك التى فى المطواة المسماة فى مصر بقـرن الغزال . يقرأ الشهـادتين وينتظر الموت، وفيما بعد يكتشف مع الأيـام أن هذا الشىء الذى فى نهايته قبضة معـدنية ليس إلا المشط الذى يستخدمه الزنوج..

ومن الطريف أن صديقاً ذهب إلى الحلاق فسأله هل تريده على هيئة مربع أو على هيئة دائرة ؟ وبحسن نيـة يظن صاحبنا أنه يسأل على عـادة أصـحاب

صالونات الحلاقة فى مصر عن الهيئة التى يكون عليها شعره فى مؤخرة رأسه، ويجيب على هيئة دائرة .. فيفاجأ زميلنا فى النهاية بشعره وقد تحول إلى الهيئة التى يراهـا فى شعر الزنوج صنـدوق مدور من الشعر كتاج فـوق رأس شبه أصلع !!.

(٧)

فى الاسبوع الأول من إبـريل كان علينا أن نقـدم الساعة فقد بـدأ التوقيت الصيفى فى مـدينـة كليفيلانـد، لعلك تظن أن الـربيع قـد حل على المدينـة على الأقل... لا ياسيدى فلا يزال الجليد يكسـو وجه هذه المدينة ببياض محبب إلى النفس ولكنـه أحيـانا غير مـريح بـالطبع . ولكنك لا بـد أن تلتزم بـالتـوقيت الصيفى ! فى عز الشتـاء!! إلى هنا وليس فى الأمر شىء . و لكن الطـرفة الكبرى ياسيدى أن مسألـة التوقيت هذه من المسائل الخلافية بين الـولايات، فهناك ولايات تقـدم الساعة وولايـات لا تقدم الساعـة .. وهكذا تصبح فى حيرة من أمرك وأنت تخاطب ولايـات أخرى بـالتليفون.. فلا بـد أن تحسب أولاً فروق التوقيت الموجودة فى الولايات المتحدة الأمريكية فالتاسعة فى لوس أنجلوس هى الثانية عشرة فى نيويورك ثم تنظر هل تلتـزم هذه الولاية بالتوقيت الصيفى أم لا .. فإذا كانت معك على نفس خـط العرض ولا تلتزم بـالتوقيت الصيفى فهى لازالت فى السـابعة على حين أنك فى الثامنـة، لا تبتئس إذن إذا لم تجد الموظفين يردون عليك فى ذلك المستشفى العظيم فى الولاية الأخرى .. وربما يكون هناك فـرق طبيعى فى التوقيت بحكم خطـوط العـرض فإذا بـه يتلاشى مع تقـديم الساعـة فى ولاية أكثر بعداً عن الأطلنطـى تقدم ساعة حين تحادثهـا من ولاية على الأطلنطى لم تقدم الساعة.

لهذا فمن الطبيعى أن تجد الناس يسألون بعضـهم فى التليفون كم الساعة الآن عندكم ؟ وهم ينظرون فى ساعاتهم! على أن أطرف ما فى موضوع التوقيت

الصيفي ما حكاه لنا الدكتور أسامة سليمان من أن بعض المدن الصغيرة في كثير من الولايات لا تلتزم في كثير من الأحيان بتقديم الساعة رغم التزام الولاية كلها بذلك !! لماذا أيها السادة ؟ فيقولون لك حتى لا نزعج البقر الذي تعود على تناول طعامه في ساعات معينة في الصباح، فإذا نحن نغير له مواعيده بحكم أن الساعة تتغير في الظاهر فقط . يقصدون الساعة البيولوجية التي سأحدثك عنها في موضع آخر من هذا الكتاب.

ها هو الربيع يبدأ في كليفيلاند وها هي الصحف تزف للناس في إعلاناتها أسعاراً متعددة للشركات التي تتولى تنسيق الحدائق وزرع الشتلات وها أنا اليوم أستمتع طوال الصباح بمشاهدة هذا الجناينى النشيط ومعه الشتلات الجميلة للزهور الصفراء والحمراء والزرقاء ، يحرث الأرض بمحراث كهربائي يدفعه بيده ليس إلا .. صوت مزعج ولكن لا بأس فكل الآلات الأمريكانية مرتفعة الصوت على ما يبدو ، ثم هو ينتقي الشتلات وينتقي لها أماكنها المحددة سلفاً وها هو المنظر يتغير في أقل من ٢٤ ساعة من شتاء تام إلى ربيع تام !!! صحيح أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.. فهذه الطبيعة ، الجميلة طبيعة حقاً ولكنها غرس الإنسان والطبيعة ، والإنسان من صنع الله الذي أتقن كل شيء .

الفصل الرابع

فى بيت عائلة أمريكيّة

(١)

لا أعرف بالضبط هل أقع تحت طائلة قانون العقوبات الأمريكى إذا أنا تحدثت بشىء من التفصيل عن البيت الذى عشت فيه مع أسرة أمريكية قرابة شهرين فى كليفيلاند على الرغم من أن الأسرة تعلم تماماً أنى سأكتب عنها وعن بيتها.. وربما تعلم على وجه التقريب كثيراً من مضمون هذا الذى أكتبه.

كنت حريصا عند الترتيب لهذه الزيارة أن أقيم فى بيت عائلة أمريكية لأن قضاء مدة طويلة فى فندق ليس بالأمر التى تتحمله نفسية أى إنسان سوىّ حتى وإن تمنى بعض الناس ذلك فى ساعات ملل من مسئوليات البيوت!!

هذا هو السبب الثالث أما السبب الأول فهو اننى كنت أريد ما يريده كل إنسان على ظهر الأرض من أن يستكشف حياة الأمريكيين فى بيوتهم بعد هذه الصور المتلاحقة التى تطالعنا عليها جميعاً السينما الأمريكية عن البيت الأمريكى الفاخر والاسرة الأمريكية المفككة. أكاد أجزم ياسيدى ولكنى متأكد من أنك تصدقنى إذا قلت لك بدون يمين إن هنا أمريكيين أيضاً يريدون أن

يشاهدوا على الطبيعة صورة ذلك البيت الامريكى التى تقدمها السينما الأمريكية .. تماماً كما أن من المصريين مَنْ يريد أن يتأمل حياة القاهريين الذين تصورهم السينما المصرية وكأنهم لا يعرفون شيئا إلا كباريهات شارع الهرم. هذان هما السببان الأول والثالث، أما السبب الثانى فسبب شخصى بحت، فقد كنت فى حاجة إلى فترة من الاستجمام البدنى والذهنى والاجتماعى أقضيها فى قراءة القرآن ومذاكرة كتب الطب وكتابة بعض التجارب الذاتية فقط، وكنت أعتقد [ويبدو أننى كنت مصيباً فى هذا الاعتقاد] أن وجودى فى بيت غير بيتى كفيل بهذا .. ولهذا كنت عازماً وقد نفذت ما عزمت عليه على ألا أقود سيارة ، أو أخرج بليل أو أتحدث فى التليفون إلا فى أضيق الحدود. وعلى قدر ما أسعدنى أن تحقق لى هدفى هذا رغم كل الدوافع والمغريات بشراء سيارة أو قيادة سيارة أو استئجار سيارة، فقد اسعدنى بالطبع أنى خلوت إلى نفسى فترات متتالية استطعت أن أكتب فيها ضمن ما كتبت هذا الكتاب.

ولكنى أريد أن أحدثك قبل هذا عن أول الأزمات فى الوصول إلى منزلى الجديد. ذلك أنه فى صباح الأربعاء السابق على سفرى تلقيت بالتلكس فى الزقازيق رسالة فحواها أن العائلة الأمريكية لن تكون قادرة على استقبالى فى الموعد الذى حددته شركة الطيران المصرية فى الثانية عشرة وسبع دقائق بعد منتصف الليل ولهذا فإن علىّ أن أحاول تغيير موعد وصولى إما مبكراً يوم الجمعة وإما فى صباح اليوم التالى يوم السبت. أو أن أقضى ليلة فى الفندق وقد حجزوا لى من باب الاحتياط ليلة واحدة يُلغى حجزها تلقائياً إذا لم أحضر حتى الثالثة صباحاً .

يمر أمام عقلى شريط الذكريات المقروءة حين كان المصريون يسافرون على مصر للطيران فقط ويضطرون لكثير من التغييرات غير المنطقية فى

رحلاتهم من أجل الالتزام بمصر للطيران. وها هى مصر للطيران الناجحة الرابحة تعود فتضطرنا إلى مثل هذا فى مطالع العقد الأخير من القرن العشرين. فهى لا تسافر أمريكا إلا يومى الجمعة والأحد. وإذا فاتتك طائرة الأحد ضاع عليك أسبوع كامل فى أمريكا لأنك حين تصل أمريكا الجمعة فى الرابعة والنصف مثلاً تكون عطلة الاسبوع قد بدأت هناك. ومصر للطيران تدخل أمريكا من باب نيويورك وهو أصعب أبواب الجنة الأمريكية. يكفيك منه أن تقف فى طابور لا يكف عن الانثناء والانحناء يميناً وشمالاً بين مسارات حددوها بحيث يقف فيه آلفان أو يزيد من البشر. تتعجب للرقم « ألفان فى طابور » نعم. هذان الألفان هم ركاب أربع طائرات فقط. تسألنى ومن أين تأتى الطائرات الأربع فاذكرك ياسيدى أن هذا المطار يستقبل طائرة كل دقيقة. لا تتعجب ياسيدى من هذا واستمر معنا فى رحلة مصر للطيران. النتيجة بالطبع أنك لن تستطيع أن تصل من طائرة مصر للطيران إلى أى مطار أمريكى آخر إلا بعد وقت وعناء. وبالتالى فإنهم فى مصر للطيران يحتاطون ويحجزون لك موعداً على الطائرة التى تتحرك من نيويورك بعد وصول طائرتهم بست ساعات على الأقل!! . فإذا خطر ببالك وأنت فى القاهرة أن تطلب إليهم أن يضعوك على طائرة أسبق موعداً أخلصوا لك النصح بعدم التعجل فى مثل هذه المواقف لأنهم لا يضمنون الظروف. مع هذا كله لست (مع أنى أنا العجول الذى تمثله عجلته عيباً بارزاً فى شخصيته الحافلة بالعيوب الأخرى) بالذى يتقبل مثل هذه الخطوات البطيئة .. وماذا يبقينى أنا فى هذا المطار الكئيب الذى هو فى الحقيقة بمثابة مجموعة من الدول (لا دولة واحدة) .. وأنا لا أبالغ فى هذا الوصف. فلكل شركة من الشركات فى هذا المطار شبه مطار مستقل، ولكى تتحرك من مطار إلى مطار هناك أتوبيسات لذلك ومسارات.

وإذا كنت قادماً من مدينة نيويورك أو خارجها بالسيارة إلى المطار ودخلت بسيارتك فى مسار خاطىء فإنك لكى تعود إلى المسار الصحيح تقضى وقتا طويلاً يكون كفيلاً بضياع موعد طائرتك عليك.. والعودة فى اليوم الثانى كى تستقل طائرة الغد. (وفى حالة مصر للطيران العودة بعد خمسة أيام) .. ها هى طائرة مصر للطيران تقوم من باريس متأخرة .. إذن سنصل نيويورك متأخرين ولكن قائدها العظيم يصل فى موعده !! أطلب استثنائى من الطابور لأنى أريد اللحاق بطائرة أخرى أزف موعدها ... وهاهم يجيبونى إلى طلبى بعد أخذ ورد.. وهانذا أمام كتب شركة PANAM A فى صالة الوصول لا أحد فيه، ولاأحد يرد على التليفون المخصص للاستعلامات .. وهانذا أمام مكتب مصر للطيران، ولا أحد يستجيب من مكتب PANAM ... والحل الذى تسوله لى خبرتى فى السفر أن انطلق بحقائبى من دون أن أسلمها على السير Check in وأن أكون جاهزاً تماماً لصعود طائرة بدون أن أسلم حقائبى مقدماً، وأن أتعهد بأخذها فى طارة PANAM وأن يتقبلوا هم هذا الوضع لأنها بحجمها الذى دبرته لن تزعج متن الطائرة . كل ما يتطلبه هذا الحل هو عشر دقائق من الجرى أو السير السريع (حتى أصل من الصالة الدولية مطار الشركات الدولة الصغيرة المشتركة فى مطار اليطاليا إلى المطار الأفخم للشركة الأمريكية PANAM) فى صقيع نيويورك وعواصفها وأمطارها لا بأس من ذلك، وأن أكون حاملاً حقائبى ولا بأس أيضاً .. مادام ذلك يوفر لى ست ساعات من الانتظار الممل فى مطار نيويورك الدولى J.K Kenndy ولا تقل عنه غير جى أف كيه .. ويوفر لى أيضا راحة بعد هذه الساعات بأن آوى إلى فراش بدلاً من العذاب المتصل بعد رحلة طيران جاءت بعد ليلة لم أر النوم فيها فى القاهرة إلا متأخراً جداً .

خطر ببالى أنه أحيانا يكون من حظ الاشخاص الذين ترغب شعوبهم أو دولهم فى تخليدهم أن تطلق أسماءهم على مؤسسات يكثر ترداد اسمائها

فيكونون محظـوظين بكثرة الترداد وأحيانا أخـرى لايكون من حظ هؤلاء أن تطلق أسماؤهم على منشـآت يكثر تـرداد اسمائها مع شيء من اللعنـة والملل والضيق كما هو الحال مع كل زائر لأمريكا لا بد أن يلعن كنيدى إذا مرّ بمطار كنيدى وأن يكفر مـن سيئات الدون جوان. أو مع زائر القـاهرة حين تضطره الظـروف إلى طريـق صلاح سـالم حين تصيبـه لعنه الازدحـام والتـوقف.. ماعليناا . هانذا أصل إلى مطار « بان أم » وأنجح بمـزيد من التوفيق فى إقناع السيدة المسئولة عن الترتيب فى وضعى على الطائرة المزدحمة، فيما بعد وجدت أن الطائرة حين اقلعـت لم يكن فيها مكان واحـد خال... ربما تعـاطفت معى هذه السيـدة لان اسمها كـان مدام محمـد... زوجها محمد وكفـى ... هل هو مصرى أو أمريكى أو افريقى أو عربى لا أعلم، هل أسلم أو ولد مسلماً لا أعلم. كل ما أعلمه هو أن اسمها الأخير على البادج محمدا .

لا بد من هـذا التليفون لا تصل بكليفـلاند ليرسلوا السـائق لاستقبالى فى المطار فى موعـد وصول الطائرة .. ولكى تستعمل التليفون لا بـد من العملات المعدنية. ولا بد من أجل الحصـول على العملات المعدنية من ترك حقائبك جانباً والذهاب للحصـول على العملات الأجنبيـة من الكاشير المخصص لذلك فى هذا المطار ..... وفقنى الله وأدركت الموظفين فى كليفيلانـد قبل أن يتركوا مكاتبهم ويغـادروها... ووعـدونى من كليفيـلانـد بإرسال السـائق!! . ينتـابنى الآن الغرور لنجـاحى فى كل هذه الخطـوات، بل وأمامى بعـد هذا كلـه فسحة من الوقت حتى تقلع طائرتى إلى كليفيـلاند استطيع أن أبدأ الآن الحوار الأمريكى حول كل ما يهمنى الحوار عنه.

.....وتصل الطائرة إلى كليفيـلاند وأجد الليمـوزين فى انتظارى على نحو مـا حدثتك فى مقدمـة هذا الكتـاب ، والسائق يقول لى إننـا سنذهب للفندق حيث أقضى هذه الليلة وفى الصباح أذهب المنزل المفترض أننى سأقيم

فيه . لم أسأل السائق بالطبع لماذا؟ فالمنطق يقول إنه لا بد أن هناك شيئاً فى الأمر وأنهم قد رتبوا الأمور على هذا النحو، مادام السائق قد جاء فى الموعد المحدد . ذهبنا الفندق وتركنى السائق.. أنا الآن أمام موظف الإستقبال يبحث عن الحجز الذى باسمى فلا يجد، وقبل أن أطلب إليه أن يعاود البحث كان السائق نفسه واقفاً أمامى مرة أخرى يعتذر لانه عندما أعطى لهم التمام باللاسلكى ، قالوا له إن الطلب الموجود عندهم أن يوصلنى إلى بيت الضيافة وليس إلى الفندق. ورغم أن المسافة بين الاثنين حوالى ٢٠٠ متراً إلا أن السائق عاد وحمل حقائبى وتحرك بى وبالليموزين حيث وجدت الحجز الخاص بى بالفعل.

انصرفت إلى سريرى فى حوالى الساعة التاسعة بعد وجبة خفيفة فى ربع ساعة، وحمام دافىء فى ربع ساعة أخرى ، وخمس دقائق أمام التليفزيون ، وخمس دقائق أخرى فى فتح الحقائب وترتيب ما قد احتاجه من حاجياتى. وفى الثانية عشرة تماما وقبل أن تنقضى ثلاث ساعات على نومى كنت استيقظ بسبب الساعة البيولوجية التى فى أجسامنا .. هذه الساعة التى لاتعرف فروق التوقيت ولا يمكن تحريك عقاربها بهذه السهولة التى ضبطنا بها ساعتنا حين وصلنا مطار باريس أو مطار نيويورك، فهذا الجسد يستيقظ فى القاهرة ما بين السادسة والسابعة ولا يتأخر عن السابعة مهما كان منهكاً.. فلا بد أن يستيقظ فى نيويورك فى الثانية عشرة التى تناظر السابعة فى القاهرة.. مهما كان منهكا.. فليستيقظ ثم لينم بعد ذلك لا بأس ، ولكن لا بد له من أن يستيقظ !!. وجبة خفيفة أخرى ومحاولة للحديث إلى القاهرة بالتليفون ثم ذهاب فى النوم العميق. فى الرابعة صباحاً استيقظت مرة أخرى وبذلت محاولات للنوم حتى السابعة بلا جدوى ولم يكن بد من أن استيقظ وافتح الستائر ، ومنذ أن دقت الساعة الثامنة صباحاً وأنا أحاول الاتصال بالعائلة الأمريكية حتى اتفق معها على الموعد الذى يمكننى فيه أن أحظى باستقبالها لى

.. وفى كل حين تجىء سماعة التليفون بصوت مسجل يقول إن هذا الرقم قد قطعت عنه الحرارة ، نفس الرد الذى سمعته منذ كنت فى نيويورك.. حتى إذا كانت الساعة العاشرة تماماً كانت العائلة هى التى تحادثنى تليفونياً، سائلة عما إذا كنت قد استيقظت.. إذن فها هى العائلة لا تزال فى كليفلاند. بعدما كنت قد بدأت مع زميلى المقيم فى كليفيلاند الدكتور حسام الشرقاوى البحث عن مكان بديل أقيم فيه.

نعم أنا الذى فى انتظارك وأنا الذى عانيت من البحث .. لا علينا .. وماذا عن تليفونكم .. قالت العائلة إنها تستعمل شريط الإجابة الأوتوماتيكية .. انتابنى العجب ، هل يضع إنسان فى شريط الإجابة عبارة تقول إن تليفونه قد فقد الاتصال .. ولكن ليس من حقى أن أتعجب مبكراً من مثل هذا التصرف ، فأنا مازلت رغم كل شىء ضيفاً أجنبياً ... دعينى أعرف متى يمكننى أن أحضر إليكم بالضبط وأتصل بكم ثانيةً .. ها أنا قد حددت مع حسام موعداً وأعاود الاتصال بالعائلة فإذا نفس الإجابة فى التليفون مرة واثنين وثلاثاً وأربعاً .. فلنصبر وسوف تتحدث .. حتى إذا كانت الساعة الحادية عشرة تحدثت ربة العائلة .. يا سيدتى تليفونك لايزال معطلاً .. طلبتك أكثر من أربع مرات .. لا عليك مما مضى ولكن اطلبى مصلحة التليفونات .. طيب حاضر ! أرجوك ! حاول أن تطلبنى مرة ثانية ما إن ننتهى من مكالمتنا هذه .. لاأمل ايضاً .. فى الثانية عشرة خطر فى بالى أن أطالع اسم هذه العائلة فى دفتر التليفونات الخاص بكليفيلاند ووجدت أن هناك صفحة كاملة من الذين يحملون لقب هذه العائلة .. أما اسم هذه العائلة فهو موجود فعلاً وبذات العنوان ولكن رقم التليفون مختلف .. هنا سر المأساة إنه ليس مختلف تماماً كما يتوقع القارىء من اقتران كلمة تماماً بكلمة مختلف فى حديث المصريين عما يتعجبون منه حين يقولون مختلف تماماً أو مختلف خالص خالص ..

إنما كـان الاختـلاف فى رقم واحد .. يـالله .. فى ذات اللحظـة كانت العـائلـة الأمريكية تتصل .. انتظرت فقد تعلن بنفسها عن اكتشاف الخطأ لانها بالطبع لن تسكت فى السـاعة الماضيـة عن بحث هذه المشكلـة .. ولعلها طلبت بل لقـد طلبت مصلحة التليفـونات بالفعـل وأجروا لها اختباراً وكلمـوها من السنترال ولم يعد هنـاك من احتمال للبس إلا أن يكون الـرقم المطلوب (أى الـذى معى) خطأ .. وهكذا طلبوا أن اقرأ الرقم المرسل بـالتلكس .. وبدأنا مرحلة من التفهم الصحيح . وحين راجعت الخطابـات الأولى التى فيها عنوان العـائلة اكتشفت أنها تضم الـرقم الصحيح ، وصبـاح الإثنين حين كان علىّ أن أبـدأ عملى كنت أعود من حين لآخر إلى القول المنسوب فيما أظنـه للإمام الشافعى عليه رحمة الله .

« إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده »

وحين جاءنى د. حسـام الشرقاوى ود. عمر مسعود آثـرت أن نبدأ بقراءة الخرائط وكانت مفاجأة .. لو اتبعنا الخرائط فسـوف نمضى فى الطريق قرابة اربعين ميلاً إلى طريق آخر يحمل نفس الاسـم . ولكن بما أننا جميعاً متأكدون من أن منزل العائلـة يقع فى مرتفعات كليفيلاند فلابـد من أن نبتعد عن عنوان الخريطـة .. وها نحن نعـود للفندق فنسأل العـائلة بـالتليفون . وتبسط لنـا العائلة وصف منزلها فعلى بركة الله.

كانت ربة العائلة تقف خلـف زجاج منزلها وتشير بأصبعها تصحح لنا .. إن طريق الدخول إليها بالسيارة (Drive) إلى الشمال وليس إلى اليمين . هكـذا حتى تكون قبـالة الباب بالضبط .. من حسن الحظ أن حسـام وعمر يفهمان تماماً تقاليد الأسر الأمريكيـة ، وهكذا انتظرا فى الخارج ولم يساعدانى فى حمل

الحقائب ودخـول المنزل بها .. ربة البيت تقـودنى إلى حجرة نـومى فى الدور العلوى وتعطينى فكرة سريعة عن حجرة التليفزيون والاسترخاء الخاصة بى فى البدروم وإلى جوارها حجـرة المغسلة .. والمطبخ فى الطابق الأرضى (الأول) ومع هذا أجـدنى .. أسرع فى الاستئذان حتى لا أؤخـر حسام وعمـر على وعد بالاجتماع معها عنـد عودتى فى المساء أو فى صباح اليـوم التالى للاستماع إلى التعليمات الكاملة .

(٢)

وحين عدت فى حـوالى الثامنة مسـاء كان النور مضـاءاً فى الطابق الأول .. ولكن العائلة غير مـوجودة .. لعلها تركت النور مضـاءا ليؤنسنى حين أقدم . لابد أنهم نيـام الآن فى الطابق العلـوى .. أخذت أتحسس خطـواتى إلى الطابق العلوى وأنـا حريص كل الحرص على ألا أتى بأيـة حركـة .. إلى اليمين حجرة بابها مفتـوح ثم حجرتى ثم الحمام وإلى اليسـار باب مغلق ثم حجـرة بابها مفتوح .. لابـد أنهم نيام وراء هذا البـاب المغلق أغلقت باب حجـرتى وأخذت أرتب متـاعى ... ثم نـزلت إلى الطـابق الأرضى وأخـذت أرتب الأطعمـة التى اشـتريتهـا من السوبـر مـاركت فى ذلك الرف الـذى أخبرتنى ربـة العائلـة فى الصباح أنه مخصـص لى فى الثلاجة ، وفى ذلك الرف المنـاظر فى دولاب الطعام وفى ذلك الجزء الأيسر من الفريـزر . كان الفـريزر ممتلئاً تمامـاً رغم سعته .. ومع هذا وجدت مساحة كانت كافيـة بالكاد للكبد واللحوم والسمك والدواجن التى أحضرتها اليوم .

انتويت الصيام لأول يوم فى رمضان وللشهر كله وأويت إلى فراشى . وفى حـوالى الثـانيـة عشرة استيقظ جسـدى لأنـه تعـود على ذلك بفعل السـاعـة

البيولوجية كما أخبرتك وليس هناك من أمل فى أن يعدل عما اعتاد عليه بين يوم وليلة ، فى الخامسة والنصف استيقظت لأداء صلاة الفجر وظللت فى حجرتى حتى التاسعة ، فى التاسعة تماماً كنت فى الطابق الأرضى حيث وجدت ربة العائلة لاتزال فى المطبخ تتناول قهوة الصباح ، وبدأنا الاجتماع، هذه ورقة طويلة بالتعليمات وناقشناها معاً .. لن أذكر لك تفاصيل كثيرة .. ولكنى سأدلك على بعض ما يهمك من أمر الحياة الأمريكية اليوم ، وقد تكون عندك فكرة أسبق منى ، ولكنى سأحدثك بانطباعاتى حتى لو اتهمتنى بالتخلف .

يبدو أنه لم يعد لجهاز البوتوجاز مكان فى المطبخ الأمريكى .. فالاعتماد اليوم على جهاز الميكروويف .. وعند هذه العائلة جهاز جديد .. ولكن كيف يمكن لى أن أعتمد عليه فى إعداد شرائح الكبدة المحمرة .. التى تحتاج زيتاً مقلياً؟ ربة البيت تتناول المرجع المناسب الموجود فى مكتبة المطبخ .. وفى المرجع المذكور أننى فيما يختص بالكبد بحاجة إلى تشغيل الميكروويف لمدة دقيقة ثم إلى أن أترك الطعام فى الميكروويف ١٥ دقيقة أخرى .. بينى وبينك لم اقتنع تماماً . ونويت أن ألجأ إلى الوسيلة القديمة إلى موقد الغاز الكهربائى .. هل انتابتنى الشيخوخة أنا الذى لم يترك جديداً إلا جربه .. لا يا سيدى اليوم أول يوم فى الصيام وليس عندى فرصة أخرى لطعام آخر .

ولكن الأمر حُسم بطريقة أخرى فحين أقبل المغرب كانت ربة البيت على رأس مائدة الطعام بالقرب من المطبخ ومعها ثلاث من صديقاتها وأصبح من الصعب علىّ أن أتقبل أن أزكم أنوف هؤلاء جميعاً ببخار الزيت المقلى .. حتى مع وجود هذا الشفاط الذى اتفقت منذ الصباح على تشغيله بمجرد البدء فى استعمال موقد الغاز .

لن أقول لك إن الكبدة بالميكروويف كانت أحلى كبدة فى حياتى ولكنها

كانت بـلاشك قريبة من هذا المعنى . إذا كـان لك أن تسـألنى عما فعلت فى هذه الكبـدة قبل أن تدخل إلى الميكـروويف فإننى ألخص لك القـول بأنها غمست تماماً فى الفلفـل .. وأحيطت بزيت المازولا الشـهير .. وبـدعاء الصـائم المضطر المغترب !!.

عودة إلى أول صباح لى فى المنـزل : فى الضحى فقط وحين انتهت ربة البيت من اجتماعهـا تركتنى لتعـود بعد حوالى نصـف ساعة فى مـلابس الخروج.. ساعتهـا فقط أدركت أن حجرة نـومها هنـا فى الطابق الأول .. أمـا ذلك الباب المغلق فلم يكن وراءه [طبقاً لما فهمت بعد ذلك من ورقة التعليمات] إلا المكنسة الكهربائية .. وأدوات التنظيف .

للعائلة ابن هـو ريتشارد وابنة هى كريستين . الولـد هو الأصغر ويعمل معملياً فى إحدى مستشفيـات سلاح الجو الأمـريكى . والإبنة كـريستين ٢٦ عـاماً متـزوجـة وتعيش فى كولـومبـوس أما ربـة البيت نفسهـا فإخصائيـة اجتماعية . تعمل فى إحـدى جمعيات مرضى السرطـان فى الجانب الغربى من المدينة .

(٣)

دعنى أحدثك بعد ذلك عن روتين الحياة اليومى فى بيت العائلة الأمريكية . بـالنسبة لى كـانت هذه السكنـى النموذج الأمثل لما أريـد ، لن يضيع وقتى فى حكـايات عن الـوطن البعيد مع زميل مصرى ـــ سأعيش الثقافـة الأمريكيـة بمعنى الثقافة الواسع كأسلوب حيـاة وهو ما لا يتاح للمرء إلا إذا عاش معهم فى بيوتهم وخارج بيوتهم لا فى مجرد العمل وساعاتـه فحسب ـ بالإضافة إلى هـذا هنـاك فاصـل واضح بين حجرة النـوم وبين حجـرات الطعـام والمطبخ

والمعيشة ـ على حين أن شقق الحجرة الواحدة (الاستوديو) تكدس كل هذا وتكرسه فى مساحة محدودة قد تكون واسعة ولكنها موحدة على كل حال .

فى حجرتى كرسى مريح ومكتب أكثر راحة ، ودولاب حائط ، ودولاب آخر، ومنضدة إلى جانب السرير ومكتبة فى الحائط ـــ كل ما ابتغيه تقريباً . كل صباح هناك جريدة وقد تعودت أن أقرأ صحيفة الصباح حتى فى البلاد التى لا أعرف لغتها جيداً ، واعتقد أن مجرد تصفح صحف الصباح لا يحتاج معرفة اللغة . هناك مطبخ حقيقى وليس مطبخاً يتكون على عجل وفى حالة طوارىء .. صحيح أننى لست مداوماً على الطبخ المستفيض إنما هى وجبات عاجلة تعودت عليها منذ بدأت اغترابى منذ أكثر من ١٧ عاماً ولكن لابد من مطبخ من أجل إذا قدر .. أو كما يقول الأمريكان In Case ، يقصدون من باب الاحتياط . هناك أدوات للنظافة على حين أنك فى الشقة الصغيرة ستجد نفسك مضطراً لتنفيذ كل عمليات النظافة بأداة واحدة .. أى أداة تقع فى يدك قبل غيرها ـ فلا مانع من أن تكنس بالمساحة أو تمسح بالمقشة .. إلخ). هناك الشعور بالوجود فى بيت وبالانتماء إلى أسرة .. هناك من تفكر فى أنه سيسألك إذا تأخرت فى المساء عن عودتك ـــ هذا الشعور يريح الذين نشأوا على نشأة تجمع بين الفطرة السليمة والحرية الحقيقية . هناك الشعور بالانتماء إلى مجتمع بكل ما يحمله موقع البيت والمنطقة السكنية التى هو فيها من معان .. هناك بعد ذلك كل الخبرة بتأثيث البيوت وترتيبها والإفادة من أركانها وتوظيف المبانى للمعانى والمساحات للأغراض ولمسات الفن الجميل سواء فى التشكيل أو التكوين أو الزخرفة أو الزهور أو الأثاث أو الألوان أو الترتيب .. فى السابعة وعشر دقائق تفتح ربة البيت باب جراج السيارة بالريموت كنترول بينما هى لاتزال فى المنزل ثم تنزل إلى سيارتها فتبدأ فى إدارة محركها وتتركها وتعود لتستأنف ترتيب ما تأخذ من متاع معها وقبل السابعة والربع تتحرك

بالسيارة إلى الخلف ريثما أغلق أبواب المنزل بمفاتيحي وأستقل السيارة فى الكرسى الامامى بينما الصديق والزميل البولندى الذى يسكن عند العائلة المجاورة قد سبقنى إلى الكرسى الخلفى أو يلحقنى فيه .

فى السابعة و٢٢ دقيقة أكون فى المستشفى وتستأنف ربة البيت طريقها إلى عملها ـــ حوالى ٤٥ دقيقة . وتبقى هناك حتى الخامسة مثلاً ، وتعرج فى طريق عودتها على من تريد من أصدقاء أو مصالح . أما عطلة نهاية الأسبوع عندها فهى كذلك حافلة بالعمل والنشاط . فى نهاية أسبوعى الأول كانت على موعد مع والدتها .. على بعد ١٥٠ ميل من كليفيلاند .. ولهذا سافرت منذ الخميس ، غابت الجمعة والسبت ـ وجاءت فى مساء الأحد .. كان هذا الأسبوع يناظر عندنا عيد الأم فى مصر ولكنه لم يكن كذلك فى أمريكا ومع ذلك كانت هذه السيدة عند والدتها محملة بكثير من الهدايا !!. فى نهاية أسبوعى الثانى كان عيد الفصح يوم الأحد .. وكان عيد ميلاد أقرب صديقاتها إلى قلبها يوم السبت . فى نهاية الأسبوع الثالث كان عليها أن تسافر إلى بيتها الريفى حيث دعت أخيها وخطيبته لقضاء عطلة نهاية الأسبوع هناك حين قابلتهم عند والدتها قبلها بأسبوعين .. سافرت ربة البيت صباح الجمعة ولكنها كانت منذ ظهر الخميس مشغولة باستقبال ثلاثة ضيوف هم ابنتها وزوج ابنتها ووالده الذين خرجوا فى سيارتين من كولومبوس فى وداع الأب المسافر إلى كندا عبر كليفيلاند .

وليس هذا هو كل السفر فى حياة ربة البيت التى قاربت الستين . ففى أحد أيام الخميس كانت مسافرة إلى توليدو ، لتحضر ندوة موضوعها « النكتة كجزء من العلاج » ، لك أن تعجب من أن تسافر هذه السيدة كل هذه المسافة لتحضر مثل هذه الندوة حتى ان احترمت موضوعها باعتباره موضوعاً هاماً حتى وإن بدا من اسمه أنه موضوع كاريكاتير عن ندوة لا موضوع ندوة

ولكن عجبك يزول إذا علمت أنه لابد لهذه السيدة شأنها شأن كل الأمريكيين الذين يمارسون مهناً من أن تنتظم فى برامج ما يسمى [التعليم المستمر] حتى تكون قادرة على أن تستمر فى أداء مهنتها والبقاء فى وظيفتها .

وعلى كل الذين يمارسون المهن المختلفة فى الولايات المتحدة أن يبحثوا بأنفسهم عن الندوات وأن يحضروها وأن يسجلوا حضورهم بشهادات تتضمن هذه الشهادات قيمة هذه الندوة من حيث الساعات المعتمدة حسبما تقدر الهيئة المشرفة على ممارسة المهنة . فإذا كانت هذه السيدة مثلا مطالبة بخمسين ساعة فى العام من التعليم المستمر فإنها لابد أن تحضر عشر ندوات من مثل هذه الندوات التى قدرت لها نقابة الاجتماعيين [مثلاً] أو اللجنة الدائمة للوظائف الخاصة بالخدمة الاجتماعية [مثلاً] أو جمعية الاجتماعيين [مثلا] خمس ساعات فى مقياس ساعات التعليم المستمر حتى وإن كانت الندوة تستمر لمدة ١٢ ساعة ما بين مناقشات ومحاضرات واجتماعات ... إلخ. هذا هو تعليم الكبار أو التعليم المستمر .. وفيما مضى ومنذ حوالى ١٢ عاماً بدانا فى مصر برنامجاً للتعليم الطبى المستمر ثم أجهضناه شأن كل أجنتنا التى نجهضها دون أن نستشعر حرمة قتل ما من شانه أن يكون زادنا وثروتنا فى تطلعاتنا نحو المستقبل .

(٤)

جانب آخر من حياة ربة البيت الأمريكية أريد أن أحدثك عنه بشىء من التفصيل وهو اهتمامها بالثقافة والكتب ، ففى الحجرة الرئيسية مكتبة صغيرة ، وفى دولاب حجرتى مكتبة أصغر ، وفى الحجرة المجاورة مكتبة أصغر وأصغر ، وفى الطرقة التى أمامها مكتبة صغيرة أيضاً ، وفى الحجرة الرابعة مكتبة أكبر من الصغيرة . وفى المطبخ مكتبة مطبخ صغيرة ، وفى حجرة

الاستقبال شبه مكتبة أيضاً ، أكون مبالغاً إذا أهملت الجانب الآخر من الموضوع ولم أحدثك عن أن المكتبة من هاتيك الصغيرات لا تضم أكثر من عشرين كتاباً ، وأن مكتبات الدور العلوى كلها فيما يبدو حصيلة الاهتمام المفرط للابن بالسيارات ـ فعنده موسوعة السيارات عاماً بعد عام ـ وكتاب عن سيارات العالم ، وآخر عن سيارات أمريكا وأعداد من مجلة Hot rod وهى مجلة للدعاية للسيارات تضم أو تتعاقد مع ست من الحسناوات ، والمجلة تصور كل سيارة وعليها أو فيها أو على طرفها أو بجوارها فتاة عارية إلا قليلاً .. هل يا ترى يعجب القارئ بالسيارة من أجل السيارة أم من أجل الفتاة التى معها ؟ لست أدرى .

أما مجموعة كتب المطبخ التى عند ربة البيت الأمريكى فشبيهة بمجموعة كتب الطب عند الأطباء المصريين الشبان ، تجدهم رغم كثرتها يحتفظون بورق صغير يصورونه من هنا وهناك ويعتمدون عليه فى بعض عملهم . هذا هو ما حدث حين جاءت ربة البيت باعتزاز شديد بثلاث ورقات مصورة من مرجع ليس عندها منه نسخة وشرعت فى عمل (كيك القهوة)!!. أما كتب ربة البيت نفسها تلك التى تستحضرها من حجرة نومها فتحدثك عن ثقافتها الحقيقية ـــ فعند ربة البيت أكثر من موسوعة تلجأ إليها فى الحصول على المعلومة التى نختلف حولها ، أو تحتاج إليها . وعندها مجلدات قيمة لأعمال أدبية من التراث العالمى ، ربما تحتفظ بها كما تحتفظ أمريكا ببعض هذه الأشياء فى متاحفها القومية !. وعندها المجموعة الكاملة للمجلة العلمية للإخصائيين الاجتماعيين . وعندها أيضاً مجموعة متفرقة من الكتب فى الفن والتاريخ والآثار وعندها كتابان فى الموسيقى .

أنا لست مبهوراً بمكتبة ربة البيت الأمريكية ـ ولست فى نفس الوقت مستخفاً بها إذا قارنتها بأى من مكتباتى ولكنى أريد أن أحدثك عن أن الأمور

لا تقدر إلا فى إطارها الصحيح . فإن الأمريكيات المتعلمات التى فى سن هذه السيدة قليلات إذا ما قورن بالأوروبيات من جيلهن أو حتى بالأمريكيات من الجيل الذى بعدهن. ولابد أن تعرف أن فى أمريكا أمية ولابد أن أحدثك أن علاج الأمية فى أمريكا هو رابع المستحيلات لا أحدثك بذلك رثاء للأمريكيين ، ولكن لأذكرك أننا فى مصر والبلاد العربية على وشك الدخول فى ذات المرحلة من استعصاء الأمية على الحل .. تسألنى لماذا ؟.

أظنك لست بحاجة إلى السؤال فهذا التليفزيون بقنواته الأربعين والفيديو من خلفه ـ ثم هذا التليفون ومن خلفه دائرة المعارف التليفونية المجانية كفيلان بأن يتيحا للأمى كل ما كان يستشعره من نقص يدفعه إلى تعلم القراءة والكتابة، ليقرأ كتاباً أو صحيفة مثلاً أو فاتورة أو إيصالاً أو عقداً ، أو ليكتب خطاباً إلى إبنه المقيم على بعد ، أو طلباً للحكومة المحلية !! ها هو التليفون وها هو التليفزيون يشبعان فى البشر الحاجة إلى المعرفة من دون أن يمتلك المرء القراءة التى كانت أداة البحث عن المعرفة .. أعرف أننى أسطح الأمور وأننى أتجاوز حدودى حين أتناول المعرفة مثل هذا التناول السطحى، وحين اختزل الحاجة إلى المعرفة إلى هذه الأمثلة البسيطة .. ولكن الحقيقة التى لا شك أنها تصدمنا جميعاً هى أن هذه المعرفة التى تراها أنت وأراها أنا سطحية هى كل ما يهم الأمى وأكثر مما يهم الأمى. وإذا شبع الأمى بهذا وتوقف عند هذا فلن يشكو لك ظمأ ولا جوعاً .

أليس فى وسع الأمريكى الأمى أن يتحصل اليوم من بين أفلام القنوات المتعاقبة فى التليفزيون الأمريكى على مشاهدة خمسة أو ستة أفلام كاملة.. هل كان فى وسع المثقف فى القرن التاسع عشر أن يقرأ روايات هذه الأفلام جميعاً فى شهر واحد!! أليست ساعات معدودة أمام التليفزيون كفيلة بأن يطالع الأمريكى ما يناظر ست صحف أمريكية يومية مختلفة الألوان والأقلام والاتجاهات؟ .

نعم يـاسيدى تبقى أنت وأبقى أنـا ويبقى كثيرون معنا لا يستغنـون عن قراءة الصحف ولا عن مطالعة الـروايات ولكنى أحدثك عن السواد الأعظم فى عصر أصبحت الثقافـة فيه متأثرة إلى حد بعيـد بفلسفة الـ Mass ولكن إذا لم تكن تأملت المعنى الحرفى فى اللغـة الانجليـزية فـاعلم أنها لا تعنى إلا وسيلـة الاتصال بالسواد الأعظم أو بالكتلة الكبيرة.

(٥)

هل أحدثك بعد هذا كله عن المنزل الأمريكى من مطبخه ربما كان من حقك علىّ ومن حق المنـزل الأمريكى علىّ كذلك أن أتحدث عنـه بشىء من التفصيل هو الآخر . فهذا هو مطبخ العائلـة لا يكاد يتسع للدواليب التى فيه، ودواليبها لا تكاد تتسع للأرفف، والأرفف لا تكاد تتسع لما عليها.. من كل حجم الأطباق أكثر من ٥٠ ... وهناك أكثر من ٥٠ ملعقة وأكثر من ٥٠ شوكة وأكثر من ٥٠ سكينـة ... عن المقـالى حدث ولا حـرج ... أدوات الميكـروويف ، أوانى لفـرن البوتاجاز .. أوانى للموائد الفخمة .. أوانى للموائد المتواضعة .. علب من جميع المقاسات للثلاجة وللميكـروويف . علب أخرى للبهارات .. علب لوازم الأيس كـريم .. علب لـوازم الكيك.. علب لـوازم المائدة والسرفيس .. أدوات كبيرة وصغيرة .. أدوات للخلاطـات .. والماكينات المختلفـة.. أوراق مفضضة لحفظ الأطعمة المطهية وأخـرى سلوفانية وأخرى ورقيـة . مساحيق الغسيل تفوق العشرة.. أطقم التـوزيع لا حصر لها.. الفناجين يتعـدى عـددها يتعـدى المائة وكذلك الكئوس ولكلٍ استعماله، هذا للمشروبات .. هذا للشاى .. هذا للقهوة .. إلخ.القهـوة نفسهـا أنـواع .. المحمصـة أنـواع كثيرة، بعضهـا يحفظ فى علب بلاستيكية، وبعضهـا فى أكياس ورقية، وبعضها فى علب معـدنية ، و بعضها جاهز مبـاشرة لماكينة القهوة... أوان متنوعـة للعصائر المختلفة، وأقول لـربة البيت إن عندهـا أشياء كثيرة جداً جداً لاشياء كثيرة جداً جـداً . فتسعد بهذا

التعليق ولكنهـا تردف بالقـول بأنها مسألة عمـر فمع مرور الـزمن يضيف الانسان إلى ما عنده .

كان على فى هذا المنزل أن استوعب تشغيل أكثر من عشر آلات :

١ ـ الغسالة الكهربائيـة ونظامها مختلف تماماً عن غسالتى وكلما أحكى عن وجوه الاختـلاف تعجب ربة البيت لهذا التقدم الاليكترونى الـذى أصاب الغسالات!!

٢ ـ المجفف وربما كان أمـره أسهل الأمـور لأنك تضبط سـاعته وتنظـر فى النهـاية هل جففت أم لا ؟والحقيقـة أنـه لايجفف فحسب وإنما يحمص الملابس.

٣ ـ البـوتاجـاز الكهربى وربـة البيت حريصة أن تجعلنـى استعمل الشعلة المنـاسبة لما أعمل بينما أنـا كعادتى استسهل الشعلـة الأماميـة اليسرى لأنها فى متناول يدى عن يمينى، وتعطى مـا أريد، ويمكننى التحكم فيها بـالقليل، ولكن ربة البيـت لا توافق على هـذا المبـدأ لأن نتيجته ستكـون ضـارة بحـواف الأوانى الصغيرة التى توضـع على هذه الشعلـة فيصيبها اللهب من أطـرافها أو بسطح البـوتاجاز من حول الشعلـة حين يصيب رذاذ الوقود واجهة البوتاجاز التى عليها عدادات الحرارة!!

٤ ـ الميكروويف . وقـد سبق لى أن صارحتك باعتقـادى أنه لن يصبح هناك محل للبوتاجاز إذا تطور هذا الميكـروويف فى السنوات القليلة القادمة على أيدى اليابانيين و بأموال الزبائن العرب.

٥ ـ التليفزيون و هو أسوأ الأجهزة لأنك لا بد أن تكبت عليه بنفسك (بلمس الأزرار طبعاً) القناة التى تـريدها قبل أن يبثها لك .. مـا أحلى الريموت الذى نشره اليابانيون فى بلادنا .

٦ ـ الفيديو .. حيث شاهدت بعض برامج جمعية القلب الأمريكية .

٧ ـ المكواة الكهربائية سبحان الله كنت أظن الماركات التى نعرفها أرقى الأنواع فكيف نصف هذه التى لا يزيد وزنها عن الخمسين جراماً التى تسوى الصوف بمجرد لمسة .

٨ ـ ماكينة صناعة القهوة .. وأمرها سهل .. فهى تقريباً نفس الماكينة التى نعرفها جميعاً .

٩ ـ المكنسة الكهربائية وهذه فى حد ذاتها تحتاج خبرة طويلة لأنها متعددة الأغراض والاتجاهات والاستعمالات .

١٠ ـ التكييف المركزى وأمره سهل .

١١ ـ غسالة الأطباق وأمرها سهل أيضاً لأن كل إناء يوضع فى محله ثم تدور.

١٢ ـ الراديو بالساعة والمنبه وسوف أستعمل الراديو فقط . فإذا أضفت إلى كل هذه الأجهزة خبرة لا بد لك بها مع كل مفاتيح الإضاءة. ومفاتيح التحكم فى مفاتيح الإضاءة.. ما هذا؟ وهذا يضىء ماذا؟ .. أدركت أن المسألة ليست بالبساطة التى تظنها من التأقلم على بيت جديد.

قبل أن تسافر العائلة فى أول مرة أوصتنى ربة البيت خيراً بقطتها الأثيرة " باتشى " ولماذا لا تأخذيها معك ياسيدتى ؟. الجواب : حتى لا تتعب أعصابها بأماكن لم تتعود عليها ، أو بالركوب فى سيارة قد تهتز فتقلق باتشى النائمة دائماً.. من هذا الدولاب تستطيع أن تأتى بالطعام إذا نقص طعامها.. وفى هذا الاناء تضع لها الماء.

والمسئولية عن حيوان أعجم امانة ثقيلة وكل فترة لا بد أن أذهب لأطمئن إلى أن باتشى لا تزال بخير ولكنى أساءل نفسى ماذا تفعل هذه القطة النائمة؟ لست أدرى. هل تأكل الفئران؟ أعتقد أن أى فأر مهما كان ضئيلاً قادر على أن يأكل هذه القطة وأن ينتهى من مضغ لحمها كله فى خلال أسبوع واحد. وحتى

هذا الفأر المصنوع من الموكيت و البلاستيك والملقى أمام باتشى على الأرض كفيل بها ، هكذا انتابنى الإحساس تجاه هذه القطة، وقديما كنا نعرف خيال المآته على أنه يخيف الطيور .. الآن يبدو أن هناك خيال مآته من نوع آخر كهذا الفأر الخيالى الذى يعطى الثقة للقطة بأنه لازالت هناك فئران فى الحياة الدنيا. بعد أيام من إقامتى اكتشفت شيئاً خطيراً حمدت الله عليه .. كانوا يسألوننا فى مراسلتهم أن نحدد إذا كنا مدخنين أم لا. لأن العائلات التى سنقضى عندها وقتاً ترغب فى تحديد هذه النقطة منعاً لإزعاج أى من الطرفين . جارتنا (ف) التى يقيم عند عائلتها زميلى البولندى مدخنة .. لكن المأساة التى رحمنى منها الله أن عندها ٣ كلاب !! ياللهول أما كان أولى بهم أن يسألوننا هل أنتم تطيقون الكلاب أم لا ؟فكرت فى نفسى (لو قدر لى بعد هذا أن أكرر مثل هذه التجربة) أن أكتب فى ورقى أننى غير مدخن وغير مطيق للتدخين ولا للكلاب وحمدت الله على نعمة الستر. فى صباح اليوم التالى وفى صدفة غريبة كانت ربة البيت تسألنى بينما نحن فى السيارة.. هل يربون الكلاب عندكم فى البيوت .. نعم ياسيدتى بعض الناس ولكنى لا أحب.. وتستطرد ربة البيت إنما أردت أن أسأل لأنه حدث ذات مرة أن جاءت طبيبة من الأردن كان المفروض أن تقيم عند جيراننا فلما وجدت الكلاب اعتذرت عن الإقامة فى مثل هذا البيت.

فيما بينى وبين نفسى أقول ولو كنت مكانها لفعلت هذا أيضا بالطبع.. وفيما بينى وبين مضيفتى لا بد من حديث آخر .. حديث عن الإنسان وكيف يخاف من الحيوان الأليف .. وأنا أعرف أن حديثى الجميل يعبر عن خوف صغير جميل أيضا.

الفصل الخامس

كليفيلاند كلينك: المكانة والمكان

أحب أن أحدثك الآن ولبعض الوقت عن العمل فى مستشفى كليفيلاند كلينك الذى قضيت فيه شهرين زائراً لأقسام القلب والأوعية الدموية. والذى يعد من أحسن المستشفيات فى الولايات المتحدة . إذن فمن المنطقى أن أحدثك عن أحسن المستشفيات فى الولايات المتحدة وأنت تدرك للوهلة الأولى أن هذا حديث صعب، لأنه يصعب عليك أن تميز بين القمم، ومع هذا لابد من التمييز، دعنى أذكرك بالمائة الأوائل فى الثانوية العامة ـ هل هناك فرق كبير بين الطالب الأول والطالب المائة؟ ربما ثمانية درجات أو ٢٪ فى المتوسط ولكن لابد أن يكون هناك أول المائة، ولهذا فإنك أحياناً ما تجد الأول فالثانى فالسابع لأن هناك خمسة يحتلون المركز الثانى.. كل منهم الثانى مكرر.. ولهذا يحتلون مراكز الثالث والرابع والخامس والسادس إضافة إلى المركز الثانى نفسه

إذن هذا الترتيب هو بمثابة البحث عن أحسن الحلوين .. وإذا كنا فى حياتنا كثيراً ما نقنع باحد البدائل لا لشىء إلا لانه أحسن الوحشين.. فإن أحسن الحلوين يصبح بالنسبة لنا مشكلة كبرى هناك بالطبع معايير كثيرة

لتقييم المستشفيات، ولن تنتهى، هذه المعايير وبالطبع هناك جداول ومقاييس ومعايير موحدة و Scores لهذا فى كتب إدارة المستشفيات وتقييمها، ولكنى مع هذا سأحاول أن الخص لك تقريراً عن أحسن مستشفيات أمريكا لصحيفة أنباء الولايات المتحدة (U.S. News & World Report) العالمى وهى الجريدة التى لا تكاد توازيها عندى إلا الهيرالد تريبيون.

كانت فكرة الصحيفة فى إعداد هذا التقرير أنها سألت ٤٠٠ طبيباً فى ١٢ تخصصاً وكانت إجابات الأطباء منصبة على ٥٧ مستشفى. وقد اختارت أكثر هذه المستشفيات تردداً فى اختيارات الأطباء ورتبتها على النحو (الرقم السابق هو الترتيب للمستشفى يدل على عدد التخصصات التى حظيت بتقدير الاخصائيين).

□□ مستشفى مايو كلينك فى منيسوتا ١١ تخصصاً.
□□ مستشفى جون هوبكنز فى بالتيمور ١٠ تخصصات.
□□ مستشفى جامعة دوك ـ ولاية كارورلينا الشمالية ٩ تخصصات.
□□ مستشفى مساشوستس ـ بوسطن ٨ تخصصات.
□□ المركز الطبى لجامعة كاليفورنيا لوس أنجلس ٨ تخصصات.
□□ المركز الطبى لجامعة واشنطن فى و لاية سياتل ٧ تخصصات.
□□ مستشفى بارنيس ـ سان لويس ٤ تخصصات.
□□ مستشفى كليفيلاند كلينك ٤ تخصصات.
□□ المركز الطبى المشيخى كولومبيا ـ نيويورك ٤ تخصصات.
□□ مستشفى جامعة ستانفورد، كالفورنيا ٤ تخصصات.
□□ المركز الطبى لجامعة كاليفورنيا سان فرانسيسكو ٤ تخصصات.

طبعا من الملاحظ أنهم سألوا ١٢ تخصصاً فقط، ولو سألوا تخصصات أكثر فربما تغيرت النتيجة.. ولكن هذه الفكرة سريعة وصادقة إلى حد بعيد على كل حال.

هل تحبنى أن أزيدك فى هذا المجال بعض الشىء فأنقل لك قائمة أحسن الحلوين فى تخصص القلب إذن فهذا هو الترتيب : ـ

□□مايو كلينك ٧١٪ من الأصوات .

□□ مستشفى مساشوستس ٧١٪ من الأصوات .

□□ كليفيلاند كلينك ٥١٪ من الأصوات .

□□ مستشفى جامعة دوك ٤٩٪ من الأصوات .

□□ مستشفى برجهام وومن ٤٦٪ من الأصوات .

□□ مستشفى جين هوبكنز ٣٧٪ من الأصوات .

□□ مستشفى جامعة ستانفورد ٣٧٪ من الأصوات .

□□ مستشفى جامعة إيمورى ٣٧٪ من الأصوات .

□□ مستشفى جامعة الاباما ٣١٪ من الأصوات .

□□ المركز الطبى المشيخى ـ كولومبيا بنيويورك ٢٦٪ من الأصوات

□□ المركز الطبى لجامعة بنسلفانيا ٢٣٪ من الأصوات .

ها أنت ياسيدى قد أخذت فكرة عن المستشفيات ـ ولعلك ونحن بلد يفرق بين القطاع العام والقطاع الخاص وبين الجامعة ووزارة الصحة .. إلخ تدرك معى من الأسماء التى كتبتها كاملة أن كلا من مايو كلينك وكليفيلاند مؤسسات خاصة وليست بمستشفيات جامعية ولا حكومية وأن القائمة تضم مستشفيات جامعة ومستشفيات عامة كذلك

وقد ساعد على ذيوع كليفيلاند كلينك والشهرة العالمية التى حظى بها أنه شارك فى صياغة كثير من الإنجازات الرائعة التى شهدتها السنوات الأخيرة

فقد شارك فى تطوير جراحات القلب والتصوير الصبغى لشرايين القلب، كما شارك فى تطوير جراحات سرطان الثدى والدرقية والقولون والأمعاء وكذلك فى زراعة الكلى والكلى الصناعية. وبالإضافة إلى هذا ساهم هذا المستشفى فى تحديث وتطوير الأعضاء الصناعية وبخاصة الوسائل المعينة للقلب(I.C.U) وفى زراعة القلب .

أما البحوث التى أجريت على الضغط وعلاقته بتصلب الشرايين فهى نموذج رائع للبحوث العلمية الدموية والمتكاملة والتى درست كثيراً جداً من العوامل والجوانب المتعلقة بالموضوع.. ويكفيك أن تطالع مثلاً قائمة عناوين البحوث التى نشرها اثنان من أساتذتنا المصريين الذين عملا فى هذا المستشفى منذ السبعينات وهما الدكتور روبير طرزى والدكتورة فتنة فؤاد لترى كيف عُنى قسم البحوث فى هذا الصرح الطبى العظيم عناية خاصة بهذا المرض. وفى الطريق إلى المراجع الطبية وإلى استخداماتنا فى كثير من المستشفيات فى جميع أنحاء العالم نتائج التطبيق لأجهزة دراسات التصوير الصبغى للشرايين بالطرح الرقمى (Digital subtraction Angiography وأجهزة الرنين المغناطيسى / magnetic Resonance (MR) التى أصبح لأقسام الأشعة هنا خبرة واسعة بها منذ أتيح لأطباء هذا القسم العمل على الطرازات الأولى من هذه الأجهزة وتسخيرها لخدمة أغراض العلاج والتشخيص.

لا غرابة إذن فى أن يستقبل هذا المستشفى كل عام ٦٣٠ الف حالة فى العيادات الخارجية وأن يدخل هذا المستشفى للعلاج الداخلى ٣١ الفاً كل عام. ولا غرابة فى أن تتسع مظلة جنسيات هؤلاء المرضى لتغطى ٧٨ دولة خارج الولايات المتحدة . ومن الطبيعى إذن أن ينتبه الأمريكيون إلى إنشاء ما يسمى بالمركز الدولى فى هذا المستشفى لينظم ويساعد فى تنمية علاقات المرضى الأجانب بهذا المستشفى، ويضم هذا المركز مجموعة من المترجمين، يساعدهم

وقتهم على أن يرافقوا المرضى من قسم إلى قسم، ويتابعوا لهم مواعيد الفحوص والعمليات.. إلخ، ولهذا كانت كليفيلاند كلينك أول مؤسسة حظيت بأن أطلق عليها الكونجرس و وزارة الصحة والخدمات الإنسانية الأمريكية مصطلح " مركز قومى للاستشارات » .. وهى جملة تعنى ما تعنى ولكنها ترتفع بالمركز من هاتيك المراكز إلى المكانة التى تحتلها فى القضاء محاكم النقض والإبرام .. أو المحاكم العليا كما يسمونها فى بعض البلاد. أحب أن أنتهز الفرصة هنا لأذكر أن الدكتور محمد كامل حسين عليه رحمة الله حين كان يتحدث عن القصر العينى (الجديد أيامها) منذ ستين عاماً يقول إن الهدف من تطوير القصر وتطوير التعليم والعلاج فيه أن يكون بمثابة محكمة عليا للحالات الصعبة. المعنى واضح وإذا كان التشبيه بالقضاء لا يروق لك ، فخذ مثلاً على ما أريد أن أقول بما يسمى فى فقة طائفة الشيعة بالمرجعية.

تسألنى عن عدد الأطباء العاملين فى هذا المستشفى فأجيبك بأنهم لايبلغون الخمسمائة فهم حوالى ٤٥٠ ولك أن تعجب من قلة عددهم بالمقارنة بعدد أطبائنا فى الجامعات أو وزارة الصحة.. ولكنى أعتقد أنك تقدر أن هؤلاء متفرغون تماماً للكلينك، غير مسموح لهم بأى عمل خارج الكلينك حتى الأطباء العاملون فى أقسام البحوث والتعليم. وأريد أن أكون صادقاً معك حتى النهاية فأستثنى لك النواب الخمسمائة الذين يساعدون هؤلاء الأطباء فهؤلاء النواب هم الوحيدون الذين يستطيعون أن يختطفوا من أوقاتهم المسائية يوماً أو اثنين فى الأسبوع يكونون خالين فيه من النوبتجيات ليعملوا فى النوبتجيات المسائية الساهرة فى المستشفيات الخاصة الصغيرة . يسمون هذه النوبتجيات هنا بالعمل فى ضوء القمر Moon Light تعبير جميل بلاشك.. ولكن الأجمل منه أنهم يتقاضون عن الساعة الواحدة حوالى ٣٥ـ٤٠ دولاراً

ومع ذلك لا يعجبهم الحال .. مع أن هذه الساعة تفوق مرتب زميلهم المصرى فى شهر كامل!!....

ونعود إلى عدد الأطباء القليل فنجد أنه مسنود بعدد ضخم من الموظفين - يكفى لكى تأخذ فكرة عن الموظفين قبل أن أعطيك عددهم الكلى، أن أذكر لك أن لكل طبيب من أطباء القلب ممرضة خاصة وسكرتيرة خاصة ـــ تصور ٤٥ ممرضة و٤٥ سكرتيرة لأطباء القلب. دعك من ممرضات الرعاية والقسطرة والموجات فوق الصوتية والأجنحة العادية، وسكرتيرات الاستقبال والمواعيد وتوزيع الحالات على الأطباء والعاملات على الكمبيوتر.. إلخ كل هؤلاء .. ألا يستلزم هنا أن يكون عدد العاملين فى المستشفى تسعة آلاف موظفاً وموظفة (بمتوسط ٢٠ لكل طبيب) . و تتيح المستشفى لنفسها الفرصة الكبرى من كفاءات النساء حين تتيح الفرصة لتدريب ٥٠٣ نائباً و١٣٤ زميل أبحاث و٢٣٩ من طلاب العلوم الصحية المتصلة بالطب و٤٢٦ طالباً (يقضون شهراً أو شهرين) ، ست وستون منهم طلاب الصف الثالث وثلاثمائة و ستون من طلاب الصف الرابع من مدارس الطب

هل تريد أن تُكّون فكرة عن أسعار العلاج فى هذا المستشفى - نعم لك أن تكّون فكرة عن أن سرير الرعاية المركزة يتكلف فى الليلة ألفاً وخمسمائة دولاراً تقريباً، أما السرير فى الحجرة العادية فيتكلف من ٥٧٥ إلى ٧٧٥ دولاراً فى الليلة الواحدة. أما القسطرة فتكلف المريض ثلاثة آلاف ونصف . وأما فحص الموجات فوق الصوتية فيكلف المريض ألفاً من الدولارات.

كيف يختار هؤلاء المتميزون متميزين جدد للعمل معهم؟ فى أثناء إقامتى كانت كليفيلاند كلينك بصدد إختيار رئيس جديد لقسم القلب، فقد بلغ الأستاذ شيلدون الستين وقد تولى رئاسة القسم منذ الستينات ، وكان هناك

اثنان يمثلان أبرز المرشحين ولم يبلغا الأربعين بعد أستاذ مساعد من ميتشجن وأستاذ من جامعة دك .. أما مرشح مايو كلينك فلم يلق القبول من اللجنة .. واللجنة مكونة من سبعة من كبار أطباء المستشفى من أقسام أخرى غير القلب.. واختيار رئيس قسم جديد ليس بالمهمة السهلة على الاطلاق، فضلاً عن الحرص على اختيار الأفضل والأنسب تأتي مراعاة رغبات وفلسفات المرشحين فقد يطلب الرجل مثلاً خمسين مليوناً للأبحاث كل عام .. قد يرى أنه لا ينبغي لراتبه السنوي أن يقل عن رقم معين!! قد يرى زيادة عدد معامل القسطرة إلى النصف.. قد يرى مضاعفة أسرة الرعاية المركزة أو تعديلاً جذرياً في خطط العلاج فيها.. إلخ . ومثل هذه السياسات ترتبط تماماً بالسياسات العامة الكبرى للمستشفى وموازنته .

عملية اختيار رئاسة القسم أصعب بكثير من أن تُشبه بالمخاض فحسب . يكفي أن نذكر أن الطبيب العالمي الدكتور سون بكل عظمته لم يستمر في موقعه وعمل تحت رئاسة شيلدون. و قد توفي سون منذ سنوات قليلة وسميت معامل القسطرة باسمه، ومازال كل من في القسم يذكرونه ويذكرون فضله .. وقد التقيت برجل عظيم هو الأستاذ إيرل شيري Earl Shirey كان أول من عمل مع سون في القسطرة ولكنه يحمل لقب Resident Emeritus وله مكتب وأبحاث.

ربما يكون السبب في شهرة كليفيلاند في مصر اهتمامها بجراحات القلب المفتوح وعلى الرغم من أننا حققنا كثيراً من النجاح في كليات الطب وفي معهد القلب القومي في إمبابة إلا أننا لانزال نفضل أن نعالج أنفسنا خارج مصر غالباً في كليفيلاند أو هيوستون تكساس في الولايات المتحدة ـ وأحيانا أخرى في لندن ، ومن حق القارىء على أن أتجرد الآن من مهنتي كطبيب قلب

لاعترف لـه أنـه سياتى يـوم قريب وقـريب جـداً يصبح فيـه الـذين يجرون جراحاتهم فى مصر فخورين بأنهم أجروها فى مصر ولم يضطروا إلى اللجوء إلى الخارج، ذلك أن مراكزنـا اليوم تتقدم بسرعة رهيبة فى هـدوء، وتتغلب بعزيمة قوية ونيـة صادقة على ما يصادفهـا من متاعب، والأهم من ذلك أن خبرة هذه المراكـز فى مواجهـه المصـاعب تنمو فى بنـاء متكـامل .. .. إلى حين تصل المهن الطبيـة المساعـدة والموازنة فى مصر إلى النقطـة المثاليـة للإتـزان مع الخبرات الطبية والإمكانـات المعملية وأدعو الله أن يتاح لنـا أى لى ولجيلى أن نشهد هذا اليوم عن قريب .

تجرى كيلفيلانـد فى العام ثلاثين ألف عمليـة جراحية منهـا ٣٢٠٠ عملية جراحة قلب، هذا الرقم يعطيك فكرة عن كليفيلاند وكيف أصبحت أكبر مراكز لجراحات القلب فى العـالم. وقد تولى الجراح الأشـهر لوب رئيس قسـم جراحة القلب فى الكلينيك رئاسة مجلس المديرين التنفيذيين فى المستشفى مؤخرا ولهذا خلفه فى رئاسة قسم جراحة القلب الدكتور كروسكوف ، ولايزال لوب يمارس جراحاته ..

ولمصر ثلاثة أقطاب بـارزين فى الكيفيلاند كلينيك سأحدثك عنهم بترتيب قدومهم إلى الكلينيك .. (وبـالمناسبة هـو نفسه ترتيب أقـدمياتهم فى مصر ..) الدكتور فوزى اسطفانوس خريج عين شمس ١٩٦١ ـ عمل طبيباً بمستشفى صيدنـاوى حتى ١٩٦٧ حيث سافر انجلترا وحصـل على زمالة التخـدير من كلية الجراحين الملكيـة عام ١٩٧٠ فعمل شهراً فى هولنـدا ثم عمل منذ ١٩٧٠ وحتى الآن فى كليفيلاند كلينيك ورأس قسم تخدير جراحة القلب والصدر منذ ١٩٧٦ وحتى ١٩٨٧ ومنـذ يناير ١٩٨٧ أصبح رئيساً لأقسـام التخديـر فى مستشفى كليفيلاند كلينك ولكنه لايزال يحتفظ بإهتمامه الشديد فى جراحات

القلب والصدر حيث يمثل الرعيل الأول من أطباء التخدير الذين تخصصوا فى مثل هذا المجال وحولوه إلى شبه تخصص مستقل . وفى ١٩٨٨ تولى فوزى اسطفانوس تحرير كتاب التخدير ومريض القلب بالاشتراك مع ٥١ مؤلفاً .. ومن أطباء التخدير المصريين الأمريكيين الذين شاركوا فوزى اسطفانوس تحرير هذه الكتب: عادل العتر فى فلوريدا ورامز سالم فى شيكاغو وذبيل فهمى فى هارفارد وعزت أبو العيش فى تكساس.

القطب الثانى : الدكتورة فتنة فؤاد ، كانت أولى دفعتها فى قصر العينى ١٩٦٥ وحصلت على الدكتوراه في الأمراض الباطنية ١٩٧٤ من جامعة القاهرة ومنذ ١٩٧٦ وهى تعمل فى الكليفيلاند كلينك وتقود الدكتورة فتنة بحوثاً متقدمة فى مجال ضغط الدم ووظائف القلب الانبساطية والانقباضية .

القطب الثالث : الدكتور محمد عبد الحميد تخرج من كلية الهندسة ١٩٦٧ وكان من أوائل الذين وقع عليهم الاختيار فى مصر (الطموحة إلى التقدم دائماً) للعمل فى المجال الذى اصطلح على تسميته فيما بعد بالهندسة الطبية، وعمل الدكتور محمد عبد الحميد فى معهد السمع والكلام بامبابة وابتعث إلى إنجلترا بعد ذلك حيث حصل على الدكتوراه Ph.D وفى ذلك العام قدم كليفيلاند ينتوى العمل لمدة عام ولكنه بقى حتى الآن لمدة أحد عشر عاماً .. ويرأس الدكتور محمد عبد الحميد معمل وظائف الاتزان فى قسم الأنف والأذن والحنجرة وفى ذات الوقت يقوم بدراسة الطب فى جامعة كيس ليجمع بذلك بين M.D، Ph.D

أما فى جامعة كيس ويسترن فيبرز عدد من النجوم المصريين فى كثير من الكليات ولانه لم يتح لى أن أتعرف عليهم جميعاً المعرفة التى تمكننى من الحديث عنهم فإنى ساعتذر عن ذلك توخياً للامانة إلى أن تتاح لى هذه الفرصة ، وساكتفى بأن أحدثك عن الدكتور عادل عبد الفتاح محمود رئيس قسم

الباطنة فى كلية الطب وهو خريج طب القاهرة ١٩٦٣ وكان أحد الأقطاب البارزين فى الحركة الطلابية والشبابية ، وهو الآن أحد الأقطاب البارزين أيضاً فى مجال الامراض المعدية .. ويقود فرقاً للبحث فى كثير من المواقع ، وهو الذى تولى كتابة الفصل الخاص بالبلهارسيا فى المرجع الطبى الكبير سيسل لوب.

ولابد أن أذكر لك كذلك بكل الخير قطبين بارزين من أطباء كليفيلاند الأحرار الذين يعملون خارج الجامعة أولهما الدكتور سيد حسنى خريج طب الاسكندرية ١٩٥٦، وقد قدم كليفيلاند فى ١٩٧٠ حيث يمارس تخصص النساء والتوليد منذ ذلك الحين متمتعًا بسمعة طيبة وبنجاح مطرد ، وبيته هو بيت المصريين فى كليفيلاند وزوجته السيدة نادية هى أم المصريين فى كليفيلاند وثانيهما هو الدكتور محمد الملواني وهو خريج طب القاهرة ١٩٦٧ وكان ثانى الدفعة وعمل نائباً لأمراض النساء والتوليد فمعيداً وهو اليوم من أبرز المتخصصين فى جراحات الليزر والمناظير .

هل تسمح لى ياسيدى القارىء أن أعود بك الآن إلى أول صفحات كتبتها فى هذا الكتاب مصوراً على طريقة اليوميات ما صادفنى فى كليفيلاند كلينك !! هذه ياسيدى يومياتى الحقيقية : ـ

يوم الأثنين :قبل أن تبلغ الساعة الثامنة كنت واقفاً أمام السكرتيرة الإيطالية فى المركز الدولى حيث كان على أن أملأ استمارة تفيد قدومى، واستمارة أخرى من أجل التأمين الصحى واستمارة ثالثة من أجل استخراج البادج الخاص بى. حتى تصل زميلتها سألتنى السكرتيرة أن أبقى بعض الوقت فى قاعة للمؤتمرات.

كى استخرج البادج كان على أن أسلك طريقاً محدداً ولا أقول طويلاً . تأخذ مصعد مبنى الفندق الذى أنت فى الدور الرابع منه حتى الدور الأول من الفندق وتمضى إلى الخلف حتى الباب الخلفى للفندق تنتظر هناك أتوبيس المستشفى الأبيض الخاص الذى يحمل حرف A سوف يقودك هذا الأتوبيس إلى المبنى المسمى شوستر ضمن المبانى الأخرى التى يمر بها هذا الأتوبيس .. وهذا الأتوبيس ليس وحده الذى يؤدى هذه الخدمة المجانية فى التنقل بالأطباء والمرضى والزائرين والعاملين بين أرجاء مستشفيات كليفيلاند والمرافق الأخرى المرتبطة بأقسام المستشفيات سواء الفنادق أو بيت الضيافة .. إلخ.

إذا وصلت إلى مبنى شوستر فعليك أن تأخذ المصعد إلى الدور A لأن هذا الدور الذى يوازى الشارع هو الدورCوتحته طابقان A&B وفوقه طابقان D&E وعلى هذا النمط كل أبنية المستشفى ف A لا يناظر A دائماً والأول لايناظر الأول دائماً.. ربما ناظر الدور الثالث فى هذا المبنى وربما ناظر الدور الثانى فى مبنى آخر .. وربما ناظر البدروم الأول أو البدروم الثانى وهكذا ..

ولكنك مع ذلك كله لا تضطرب فى البحث عن هذه المناظرات بل ولا تفكر فيها على الإطلاق .. بل إننى مع تقدم الوقت بى فى المستشفى اكتشفت ولكى أكون صادقاً أو اكتشفت مجموعة من أساتذتنا المصريين الذين زارونا أننى أعرف بعض طرق المستشفى وتخاريمها Shortcut أحسن من بعض الذين يعملون هنا أكثر من ١٥ عاماً.. لأنك تجد التعليمات واضحة ومحددة واللافتات الدالة على ما أنت فيه ، وعلى ما تريد ، واضحة ومعبرة ومنتشرة مع كل خطوة تخطوها.

وحين تذهب لاستخراج البادج فإنك تملأ استمارة أخرى وتوقع عليها وتجلس امام كاميرا ، والكاميرا متصلة بالكمبيوتر ، والسكرتيرة تأخذ اسمك

وتكتبه على لوحة مفاتيح الحروف وفى ذلك الوقت توجه الكاميرا إليك لتأخذ صورتك فى نفس الوقت ، ويخرج لك البادج سريعاً من هذا الجهاز الكاتب المصور المغلف والمحتفظ بالمعلومات فى ذات الوقت . ماذا يسمونه ؟ لست أدرى!! وفى التعليمات المكتوبة فى الورقة أن هذه العملية تأخذ من عشرين إلى خمس وأربعين دقيقة ولكنها لم تأخذ معى أكثر من ثلاث دقائق .. أجد قلمى يريد أن يقول قل خمسة حتى لا تتهم بالمبالغة .

وتطلب السكرتيرة عشرة دولارات كتأمين لهذا البادج تضيع عليك إذا مارست هواية البشر فى الاحتفاظ بالبادج كذكرى. أما إذا أردت الدولارات العشرة فعليك أن تسلم البادج فى اليوم الأخير .

وها أنا اعود حيث أتيت إلى المركز الدولى فى الطابق الرابع من الفندق. فإذا مسئولة التأمين الصحى فى انتظارى لأملأ استمارة أخرى،ثم تعطينى ورقة بموعدى عند طبيب الأسنان فى الساعة الحادية عشرة والنصف عند الديس 52 - S وكل اللقاءات على هذا النحو.. رقم للديسك يتكون من حرف أبجدى ورقم. والرقم يعنى رقم الدور من خانة العشرات والحرف الأبجدى الذى يدلك على المبنى . إذن فعندى وقت من الساعة التاسعة والنصف حتى الحادية عشرة والنصف أقضيه عند الدكتور جبران الذى سوف يكون من حظى أن أعمل معه هذا الاسبوع. فلأذهب إلى F 25. وهذا هو رقم الديسك الخاص بقسم القلب الذى سوف أعمل فيه . إذن فلا بد أن أذهب إلى مبنىF وهو كما تقول الخريطة هو المبنى الملاصق لمبنى الفندق .. إذن فلا داعى للأتوبيس هكذا أفكر بصوت عال أمام السكرتيرة التى توافقنى وتقترح علىّ الذهاب عن طريق ما يسمى طريق السماء..وطريق السماء هذا كوبرى مشاة طويل يبلغ طوله ٧٠٠ قدم عريض لا يقل عن ٥ أمتار، زجاجى الجنبات مكيف الهواء وبساطه من أفخم أنواع السجاد وجدرانه من أروع الديكورات

والزجاجيات..ربما يمر بخاطرك ذلك الممر الضيق بين مبنيين للبنك الأهلى فى شارع شريف بالقاهرة ولكن هذا لايمثل واحد على المليون من جمال ولا جلال ولا كمال هذا الممر طريق السماء الذى يربط مبانى مؤسسة كليفيلاند كلينك الطبية معاً.

وفى طريق السماء هذا مصاعد لكل مبنى ـــ فإذا إنتقلت من مبنى الفندق إلى المبنى F مثلاً .. فإنك لابد أن تنزل إلى الطابق الأول من الفندق وهو اللوبى وفى نهايته تصعد طابقاً لتكون فى مستوى طريق السماء الذى تمضى فيه حتى تصل إلى مصاعد المبنىF وهناك تطلب إلى المصعد أن يقف بك [لا تقل هنا يصعد أو يهبط لأن الأمر يختلف من مبنى إلى مبنى حسب مستواها مع طريق السماء] عند الطابق الثانى مثلاً ، وفى الطابق الثانى تبحث عن الديسك الذى أنت موجه إليه.

أما الدكتور جبران فقد بدأ المرور فى الرعاية المركزة هكذا جاءنى الرد بعد ما استدعوه بالبليب ولكنى أنا الآخر سأكون مشغولاً بدءاً من الساعة الحادية عشرة والنصف .. ويجىء الرد مرة أخرى بعد الاتصال به بالبليب .. إذن فلاأذهب إليه بعدما أنتهى من كل ما يشغلنى. وأمامى قرابة المائة دقيقة يتيحها لى الله لاكتب لكم هذا الذى بدأت كتابته عن كليفيلاند .

هل يكون حديثى معك عن بعض التفصيلات فى مستشفى كليفيلاند كلينيك حديثاً ثقيل الظل بعض الشىء حين أحدثك عن المستشفى العظيم الذى أتيح لى أن أمضى فيه هذا الوقت المثمر .. نحن نقول دائماً بشىء من الفخر التعويضى إن أمريكا بلد بلا تاريخ أعرق ما فيه عمره مائتا عام .. نعم ياسيدى ولكن معظم ما فيه من رموز الحضارة الحديثة جداً أيضاً قد قارب عمره على المائة عام !! ونحن لانزال بين يوم وآخر حين نريد أن نرفع من قدر

شيء نلجأ إلى حقيقة واحدة أو إلى حيلة واحدة ـ لست أدرى ـ فنقول أنه أول مركز وأول معهد وأول برنـامج وأول مؤتمر .. إلخ. إذن فنحن فى بلاد العراقة معظم مؤسساتنا لم يبلغ العام، وهم فى بلاد الحداثة معظم مؤسساتهم قارب المائة عام .

نحن فى كليفيلاند وفى كليفيلاند أكثر من جامعة.. هل تعرف هذه الجامعة التى تسمى كيس ويسترن ريسرف يونفرستى؟ والتى ننظر إلى مستشفياتها ـ نحن الذين فى كليفيلاند العظيمة ـ من علٍ!! هذه الجامعة ياسيدى بدأت عام ٢٤ ـ طبعـاً تظنّ أنها بدأت بالكـاد قبل جامعة القـاهرة بعام واحـد ـ نعم لك الحق ياسيدى إذا ظننت ذلك، ولكن من حقك علينـا أن نقول لك إنها بدأت عام ١٨٢٤ وليس ١٩٢٤ .. وكليفيلاند هذا الصرح الطبى أنشىء عام ١٩٢١ حين وجد ثـلاثة من أسـاتـذة هذه الجامعـة أنهم سيتقاعدون بينما هم لايـزالون يحبون أن يمارسـوا الطب .. فبدأوا بناء هـذا المستشفى وانتهوا منـه فى عام، وقد كان أجر العامل يوم بنوا هذا المستشفى دولاراً لكل ساعة ، وفى تلك الأيام كان الغـداء يتكلف ٢٠ سنتاً أى خمس دولار، وكان طابع البريـد بسنتين وقد قام أول مبنى فى هذا المستشفى على مساحة ٧٦ قدماً × ١٢٠ قدماً واستخدم فى بنيانه حوالى ٤٨٠ ألف طوبة وقد عهد بتصميمه إلى المهندس العظيم الليربى Ellerbee وهو نفسه الذى تولى بنـاء مستشفى مايو كلينك العظيم من قبل . أما اليوم فتقوم الكلينك على مسـاحة ١٠٥ هكتار أى أكثـر من ١٠٠ فدان وتضم عدداً من المبانى المتباينة تماماً فى ذوقها وبنائها ومعمارها يبلغ عددها أكثر من ٣٠ مبنى ولكنهـا مـرتبطة مع بعضهـا كما حـدثتك من قبل بطـريق السماء وسأحـاول أن أصور لك الأمـر بشىء من التفصيل مع أن كل القـريبين منى يجمعون على أنى أسوأ من يشرح !! .

أنت الآن فى شارع يوكليد ، و الـذى يُفتَرض أن عنوان الكينك عليه رقم ٩٥٠٠ شارع يوكليد ، ويوكليد هـذا عالم يونانى . وأنت الآن قادم من وسط البلد .. ستجد إلى اليمين مبنـا قديماً له مدخـل صـغير على الشارع تكاد العين تخطئه اليوم .. نعم لأنه اليوم مدخل فرعى لقسم صغير هو مركز الأورام.. إذا دخلت من هذا البـاب وعبرت الطرقة الطـويلة التى تمر عبر قسم الأورام فإنك تجد نفسك فى مـدخل استقبـال فسيح (يكفى عليـه وصف فسيح لأننـا سنصادف بعد هذا مـداخل فسيحة جداً مدخل M ومداخل فسيحة جداً جداً كمـدخل مبنى F&G ومـداخل أخـرى ليس إلى وصف فسـاحتهـا من سبيل كمدخل مبنى A) هذا المدخـل الذى ستجده بعـد قليل يمثل ياسيـدى المدخل الحقيقى لأحد الأجنحة الثلاثة الضـخمة التى تكون مع بعضها شكل حرف U الذى يتمثل معه المستشفـى القديم تماماً . أما الجناح الأيمـن فهو الذى يضم المبانى التـى تحمل حروف M,S&T وأما الجنـاح الذى يمثـل حرف U فيضم المبانى التى تحمل حروف A,G&F وأما الجناح الأيسر فهو مبنى البحوث . أما مبنى T فهو مخصص للعيادات الخارجيـة وأما حرف S فهو الآخر للعيادات الخارجيـة . والعيادات الخارجيـة مصطلح يعنى تلك الأجـزاء من المستشفى التى لا تقتضى مـن المريض المبيت بـالمستشفى ، إنما هـو يـأتى المستشفى يعـالج أو يشخص من دون أن يبيت فيـه ، وفى هذا المبنى فى الـدور الخامس مثـلاً عيادات الأسنـان ، وفى الـدور السادس القسـم الذى يتـولى تشخيص أمراض الجهاز الـوعائى بواسطة الدوبلـر وأما حرف M فهو مستشفـى فيه عنابـر داخلية، ويضـم أيضـا مستشفى الطـوارىء وفيه أيضـاً عيادات الألم التابعة لقسم التخدير فيما بين حرف S وحرف M يوجد مبنى كامل للأغراض التعليمية اسمه مبنى التعليم Education فى هذا المبنى قاعات عديدة للمؤتمرات وفيه المكتبة .. وتجتمع هذه المبانى الأربعة M,S&T والمبنى التعليمى على مدخل

واحد جميل فيه الماكينات الخضراء التى تسمح لك بصرف أموالك التى فى البنوك ببطاقات الفيزا .. وفيه كافيتريا للوجبات السريعة .. وفيه خزينة للتأمينات والمستحقات وفيه ماكينات بيع الصحف وفيه أكشاك للإستعلامات وأكشاك للدعاية لمشروعات التوعية الصحية المتنوعة كالحملة ضد السموم — أو ضد السرطان أو ضد الإيدز أو من أجل التغذية السليمة.. إلخ . وفيه مكتب للبريد .. كل هذا ياسيدى تجده فى المدخل الذى تبخل عليه عظمة كليفيلاند بكلمة فسيح جداً .

أكون مقصراً فى حق المبانى الأربعة إذا لم أقل لك إن لها مداخل أخرى فالمبنى T كما قلت لك له مدخل على شارع يوكليد نفسه وللمبنى التعليمى مدخل خلفى على الشارع الشرقى التسعين وإلى الجانب الآخر من الشارع تجد أحد الجراجات الكبرى بالمستشفى ومبنى M وهو مبنى الطوارىء له مدخل هو الآخر على الشارع الشرقى التسعين .

هذه هى المبانى الأربعة التى تمثل الجناح الأيمن من الكتلة الكبرى من كليفيلاند كلينك ... تصور نفسك قادماً معى من وسط البلد ماراً بشارع يوكليد حيث الباب الصغير الذى يطل به مبنى حرف T على شارع يوكليد، فإنك تجد قبل هذا المبنى عدداً من المبانى يطل على شارع يوكليد ولكنها لاتنتمى إلى كليفيلاند كلينك ـ ولكن وراء هذه المبانى مباشرة يهمنى أمرها ـ وتقع الثلاثة فيما بين الشارع الشرقى التاسع والثمانين والشارع الشرقى التسعين إثنان منها جراجان .. أحدهما اسمه جراج الموظفين .. والثانى اسمه جراج التسعين أما المبنى الثالث فهو مستشفى ويحمل حرف P. ها أنت ياسيدى تدرك الآن أنه لابد لحرف P وللجراجات أن تتصل عبر الشارع التسعين بكتلة المستشفى الأصلية من دون أن يعبر المرضى أو الموظفون أو

الزوار الشارع .. نعم .. وهناك شبيه بطريق السماء فوق الشارع التسعين الشرقي . أعود بك إلى حرف U ها أنت قدمت من شارع يوكليد سواء بالسيارة أو على قدميك ودخلت فى حرف U حيث النافورة التى تتوسطه والتى تمر حولها السيارات ـ وأنت الآن عرفت أنه فى الشمال يقوم مبنى البحوث وإلى اليمين المبانى الثلاثة M,S&T فماذا فى الواجهة ؟ فى الواجهة ياسيدى ثلاثة مبان أحدث عمراً من السابقة ـ تبدو لك كأنها مبنى واحد ولعلها كذلك .. مدخلها فسيح جداً جداً ـ ينضم إلى مدخلها جزء كبير من مساقط النور ـ ومساقط النور فى هذا المدخل مغطاة بالزجاج ولكن ليس من الطابق الاول وإنما من الطابق الثانى .. وإذن فلارتفاعها عظمة شاهقة تريح النفس وتبهرها فى نفس الوقت والفكرة المعمارية فيها تقليد لفكرة العمارة الإسلامية فى مساقط النور الداخلية ـــ والجلوس فى هذا المدخل الكبير متعة كبيرة ، صالونات فخمة وزهور جميلة وتليفزيونات ذات شاشات كبيرة الحجم ، تكييف جميل ، فاذا ما تجاوزت المدخل الفسيح جداً إلى عمق المدخل حيث مساقط النور المغطاة بالزجاج الجميل على هيئة هرم أو نصف هرم أحسست بالراحة التامة من هذا المعمار المريح .

أما مبنىF فهو مخصص للعيادات الخارجية ومكاتب الأطباء وأما مبنى M&G فهما مخصصان للجراحات والرعاية المركزة والاقسام الداخلية للمرضى. وترتفع هذه المبانى أحد عشر دوراً . تريد أن تسألنى عن بقية مبانى الكلينك . دعنا ننظر من علٍ كما لو كنا فى طائرة من فوق الكلينك كله لأصور لك الأمر كله تصويراً بسيطاً . إذا كانت مبانى المستشفى تطل على ميدان فسيح يطل على شارع يوكليد وإذا كانت المستشفى تأخذ شكل حرف U فإذا كانت مبانى H&G وكذلك P بمحاذاتها تمثل قاعدة حرف U فعلام تطل هذه القاعدة من الجانب الخلفى ؟ إنها تطل ياسيدى على شارع عظيم لا يقل

اتساعاً عن شـارع يوكليد وهو مسمى باسم رجل عظيم آخـر هو كارينجى . أنت الآن ستـدرك بذكـاءك ، وانـه لابد هنـاك امتداد لكيفيـلانـد بعد شـارع كارنيجى نعم ياسيدى هناك مبنـى ضخم جداً جداً هـو مبنى حرف L وهو المخصص للمعـامل .. وفيه جزء كبير شبـه مستقل مخصص لأجهـزة الرنين المغنـــاطيسى وقـــد صمم معمار هـــذا المبنى بحيث لا يسمـح للتأثيرات المغناطيسية أن تؤثـر على الأجهزة العاملة فيه وقد كـان هذا هو الاعتقاد فيما مضى ، أما بعـد التطوير التكنولـوجى فقد أمكن التغلب على هذه الصعـوبة . طبعـاً ياسيـدى لابد من طـريق السماء يعبر فوق شـارع كارنيجى ليـوصل المحامل بمبـانى المرضى H&G وببقيـة كتلة المستشفـى . حين أكون واقفـاً فى حجرات المرضى فى الرعاية المركزة فى مبنى G فإننى أطل على شارع كارنيجى من هذه الحجرات . وشارع كارنيجى هـذا من حيث المرور يطبق قاعدة مهمة جداً فهو من يوم الإثنين وحتى الجمعة مـن الرابعة وحتى السادسة والنصف يكون اتجاهاً واحداً فقط ناحية الشرق ، وفيما عدا ذلك فهو اتجاهان.

لك ياسيدى أن تتجـاوز كل هذه الفقـرات التى أكتبها فى وصف المبـانى والخرائط وتستغفر لى ولنفسك عـن اللحظة التى فرضـت فيها على نفسك أن تقـرأ هذا الكتـاب الممل ـ ولكننى لـن أسامح نفسى إذا أهملت وصف المبـانى والشوارع والمرور ـ وأهملت من الحضارة إنجازاتها الرائعة وتنظيمها الدقيق وتغلبها على كل المشكلات التى تصـاحب النمو المتراكم والاتساع المدروس عبر السنوات .

أريد أن أقول ياسيدى إن هذه المبانى التى أحدثك عنها ليست مبعثرة أكثر من بعثـرة مبـانى طب عين شمس التى تظنهـــا متبعثـــرة بين عين شمس التخصصى على يمين الخليفـــة المأمـــون .. وعين شمس القـــديم على شمال

رمسيس والدمرداش من خلفه والنساء الجديد مستشفى الأطفال ومركز الطب النفسى فى عرب المحمدى ومبانى الكلية والمدرجات والأكاديمى خلف مسجد النور وليست مبعثرة أكثر من بعثرة مستشفى قصر العينى القديم والجديد وأبو الريش واليابانى ومستشفى الباطنة والمدرجات والأكاديمى ومستشفى النساء... إلخ.ولكنهم ياسيدى أكثر منا قدرة على الربط و التوحيد، وتحويل الأنغام المتفاوتة والضربات المختلفة التون إلى سيمفونية واحدة .. هذه هى موسيقى الإدارة والتخطيط ياسيدى .

□□ خرائط واضحة .

□□ مسميات لا لبس فيها ولا تكرار تعتمد على الحروف والأرقام والاختصارات لا على الأسماء الطويلة أو الرنانة أو المكررة .

□□ لوحات إرشادية مبعثرة فى كل مكان .

□□ معمار جميل يبتدع أشياء من قبيل مايسمى بطريق السماء طريق مقفول لا مدخل له إلا من هذه المبانى ـ عمال لا يشغل الأرض لا يقطعه المرور ولا يقطع هو المرور ، جدرانه من الزجاج تجعله واضحاً وتجعل السالك فيه مهتديًا تماماً إلى المواقع التى من أمامه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله . مزدوج الفائدة إذ تتم فيه أيضا برامج تأهيل المرضى بالمشى بعد العمليات الجراحية الكبرى .

وأعود بك ياسيدى إلى مبنى المعامل لأذكر لك أنه يحتل الكتلة الكاملة التى بين الشارعين الشرقيين الثالث والتسعين والسادس والتسعين فكأنما الشارعان الرابع والتسعون والخامس والتسعون جزء من كتلته لو كان لهذه الكتلة أن تنقسم على نحو ما تقسمت فى مواضع أخرى من المدينة . وها أنت

تدرك الآن أننى لا أذكر لك الشارع السادس والتسعين إلا لأحدثك عن مبنى جديد يطل عليه .. نعم ياسيدى هناك مبنى للبحوث يطل عليه . إذن وعلام يطل مبنى البحوث الجديد هذا ومبنى المعامل من ناحيتهما الأخرى .. إذا كانا يطلان بواجهتيهما على شارع كارنيجى فإنهما يطلان من الناحية الأخرى على شارع سيدار . وهو موازٍ لكارنيجى ويوكليد .

ياالله .. هل رأيت إلى الآن كيف تمتد المستعمرة لتطل على ثلاثة شوارع رئيسية كبرى من التى تعبر كليفيلاند من شرقها إلى غربها .. وسيأتى ذكر الرابع والخامس فيما بعد . لم يعد أمامنا كثير .. فها نحن الآن فى الشارع الشرقى السادس والتسعين الذى تستطيع أن تصفه بأنه الشارع العرضى الذى ينصف المستشفى تماماً أو هكذا يبدو لك فى الخريطة وفى الواقع .. أنت الآن تدرك أيضاً لماذا يطلق على المستشفى رقم ٩٥٠٠ يوكليد لأنها ياسيدى (أو لأن بابها القديم) كان على شارع يوكليد فى المربع الذى بين الشارعين الشرقيين ٩٥ و ٩٦ وهكذا تستحق رقم ٩٥٠٠ ـــ لعلى أنتهز الفرصة هنا لأشرح للقارىء أن الأرقام الضخمة التى يجدونها للبيت فى الشوارع ليست ذات دلالة على أن هذا الشارع ٩٥٠٠ بيت مثلاً . وأحياناً تصل الأرقام إلى خمس خانات وليس معنى هذا أن البيوت فى الشارع (أو الطريق تصل إلى تسعة وتسعين ألف .. ولكن المسألة فى منتهى البساطة أنهم يتركون خانتى الآحاد والعشرات للبيوت التى فى المربع حتى ولو كانت بيت واحداً .. لماذا ياسيدى يفعلون هذا ـ حتى يسهل التعرف على موقع البيت فى الشارع الطويل بموقع الشوارع العريضة فأنت فى منتهى السهولة تستطيع أن تدرك أن ٩٥١٠ شارع كارنيجى يكون موازياً لـ ٩٥١٠ شارع يوكليد .. وهكذا دعنى لا أترك هذه النقطة الا بعد أن أذكر لك أن مؤدى هذا كثيراً من الشوارع لن تبدأ أرقامها من رقم ١ ولا حتى من رقم ١٠١ وخذ على سبيل المثال الشارع

الـذى سكنت فيـه أنه يبدأ بـرقم ٢١٠٣ ومعنى هذا أن حـدوده على الخريطة لاتبـدأ إلا عند الشـارع الشرقى الواحـد والعشرين وهكـذا . وفى أمريكـا تجد الشوارع التى تمضـى من الشمال والجنوب تحمل أرقـاما ، أما الشوارع التى تمضـى من الشرق إلى الغـرب فتحمل أسماء . وفى مـدينـة واشنطن تحمل شوارع الشرق إلى الغـرب حروفـاً بالإضـافة إلى الأسماء. لم أجـد هذا الشرح مكتوباً فى كتاب ولكنى أجهدت نفسى حتى استنتجت، ولم أحصل على إعتماد رسمى له بعـد ولكنى مع هذا أحب إن أقول لك إن بـوسعك الاعتماد على هذه المعلومات.

أعـود بك يـاسيدى إلى الشـارع السـادس والتسـعين حيث يفتح الفنـدق الخاص بالكلينك أبوابه على الشارع .. وفوق هذا الشارع يمر طريق السماء .. وعلى هذا الشارع نوافذ عديدة لمبنى البحوث ومبنىF ومبنىG ومبنى L ومبنى للبحوث غير ذلك المبنى المتصل بالمستشفى F وهو مبنى البحوث الثانى الذى يطل على سيدار والسادس والتسعين . على هـذا الشارع أيضاً يطل مبنى كبير جداً ومهم جداً لا يقدر قيمته غير المصرى الذى يذهب القاهرة من حين إلى آخر فيرى الجراجات متعددة الادوار ويشكر الحكومة جهدها فى بنائها .

هذا هو الجراج الثانى من جراجات المستشفى واسمه جراج شارع يوكليد يطل من الشمال على يوكليد ومـن الشرق على السادس والتسعين ومن الغرب على مدخل المستشفى (بحيث يكـون على يدك اليسرى وأنت داخل المستشفى مقابلاً لمبانى T&S ومحاذياً لمبنى البحـوث المتصل بالمستشفى F وبين مبنى شارع يـوكليد طريق صغير اسمـه طريق الكلينك تمر بـه كل السيارات التى تريد أن تأتى من كارنيجى إلى باب المستشفى.

يحتل الفندق (وكذلك مبنى البحوث الثانى المطل من بعد على سيدار] مربعاً يمتد ما بين الشارع السادس والتسعين والشارع المائة وفيما بين الشارع الشرقى المائة والشارع الشرقى الثانى بعد المائة هناك الهرم الضخم أقصد المبنى الجديد ذا الأدوار الخمسة عشر على هيئة الهرم الذى افتتح عام خمسة وثمانين .. وهو مبنى A وكل هذا المبنى مخصص للعيادات الخارجية .. والعيادات الخارجية هذا تتسع لتشمل كثيراً مما نسميه فى الطب بالـProcedure أو العمليات التى يقوم بها الأطباء الباطنيون كالمناظير مثلاً ـ وكذلك القسطرة فى القلب ، ولو أن القسطرة هنا مرتبطة بمبنى المستشفى نفسه لارتباطها الآن بكثير من الجراحات.

وفى الحقيقة أننا فى مجال الطب فى البلاد المتكلمة بالعربية لم نحدد حتى الآن كلمة لمثل هذه العمليات Procedure ومع أنه يصدق عليها كلمة عمليات بالفعل ولهذا فإنه يمكننا أن نقول عنها العمليات فحسب ونخصص كلمة الجراحات للعمليات الجراحية .. ويصبح الفرق واضحا بين الـ Procedure والـ Operation أو بين العمليات والجراحات إلا أن هذا الذى أقترحه الآن فى هذه الفقرة لم يجد مكاناً على أرض الواقع بعد، ربما يأخذ أساتذتى وزملائى بما أرى . ولكن من الصعب (خاننى القلم ـــ أريد أن أقول وليس من الصعب) أن يتفهم الجمهور فى المستقبل ذلك الفرق حين يرى اللافتات وقد كتب عليها حجرة العمليات ولافتات أخرى وقد كتب عليها حجرة الجراحات.. فأنا من الذين يحسنون الظن بالجمهور إلى أبعد الحدود.

وأذكر أننى كنت من الحريصين دائماً على لفت الأنظار (بل والتغيير باليد فى كثير من الأحيان) فيما يتعلق بتسمية الأمراض الباطنة ـ كانت كشوف أقسام الكليات ووزارة الصحة تسميها الباطنية ـ وكنت لا أترك فرصة التنبيه

إلى ذلك حتى مع الموظفين الذين يكتبون الكشوف فى الكليات المختلفة حين كنت أتولى إصدار الخبرات الطبية ـــ لا أزعم أننى صاحب دور كبير فى هذا التصحيح ، ولكنى استطيع أؤكد أن أحداً من حوالى خمسين نبهتهم إلى هذا لم يرفض ما طلبت إليه وهذه نسبة عالية جداً من الايجابية التى يتمتع بها شعبنا العظيم العريق ومن الطريف أن واحداً من أساتذتى الأفاضل قال لى مازحاً الله يفتح عليك، ريحتنا من سيرة الباطنية بكل ما فيها من موبقات .. يقصد السمعة التى يتمتع بها حى الباطنية فى تسويق المخدرات . وقد أفدت بالطبع من هذه اللمحة .

إلى الجنوب من مبنى A نجد الجراج الثالث واسمه جراج الشارع المائة .. يطل على شارع كارنيجى بواجهته البحرية ويطل بواجهته القبلية على شارع وليبر وهو شارع طولى آخر يقع بين كارنيجى وسيدار ، ولا يبدأ إلا بعد الشارع المائة .. فيما بين كارنيجى و وليبر وإلى الشرق من جراج الشارع المائة نجد مبنى E وهو مبنى مستشفيات .

وفيما بين كارنيجى ويوكليد وإلى الشرق من مبنى A الضخم نجد ثلاثة مبان متتالية مبنى الغسيل الكلوى ويحمل حرفD وبعده مبنى يحمل اسم يوتر ميللين ثم مركز حصوات الكلى الأولان فيما بين ١٠٢ و ١٠٥ والأخير إلى الشرق من ١٠٥ . إلى هنا ياسيدى تنتهى كل مستعمرة الكلينك التى على يمينك وأنت قادم فى يوكليد من غرب المدينة ومن وسطها ـ إلى شرقها . كل هذا على يمينك وكل هذا متصل تماماً ببعضه حتى مبنى A بطريق السماء بالإضافة إلى الأتوبيسات الخاصة التى تنتقل بين مبانى المستشفى .

ماذا عن اليسار ؟ ما هى المبانى التى إلى يسارك وأنت قادم من وسط المدينة فى يوكليد. هناك إلى الغرب وقبل أن تصل إلى أول باب للمستشفى على

يـوكليـد .. هنـاك وقبل الشـارع التـاسع والثمانين تجد مبنى من مبـانى المستشفى يقع مـا بين يـوكليـد إلى الجنـوب وشيستر إلى الشمال، وفيما بين التاسع والثمانين والتسعين هناك متحف كليفيلاند للوعى الصحى وفيما بين التـاسع والثمانين والتسعين تجد مسـاحة كبيرة من الأرض الفضـاء ولافتـة ضـخمة تحمل عنوان برج الكلينك لا أدرى هل سيقـوم فيها هرم جديد ضـخم ولكنى أعتقد أنـه لابد من ذلـك ربما بعد ٢٠٠٠ مباشرة !! و فيما بين الثـالث والسـابع والتسعين يقع بيت الضيـافة الخاص بـالكلينك. وفيما بين السـابع والتسعين والأول بعـد المائة مبنى W وهو مـركز شيستر للمـؤتمرات .. وهو المبنى الذى نحصل منه على البادج الذى نمرره من ظهره فى الأبواب فتنفتح وفى عوائق الجراجات فترتفع ونمضى به فى طرقـات المستشفى وحجراته فيعرفنا زملاؤنا ويعرفون كل ما يحبون عن تخصصاتنا ومكانتنا.

الفصل السادس

فى قسم القلب بكليفيلاند

أحب أن أصور لك بعضاً من الطب الأكلينكى فى مجال القلب (Clinical Cardiology) وكيف يمارس الأطباء الأمريكيون الطب على الرغم من انغماسهم إلى آذانهم وربما إلى أعلى من آذانهم فى الطرق الحديثة للتشخيص (الدراسات الكهربائية الفسيولوجية ، أو الدراسات غير النافذة بالموجات فوق الصوتية، والطب النووى ، والرنين المغناطيسى، أو بدراسات رسم القلب ذى المجهود أو الديناميكى فضلاً عن دراسات القسطرة وتصوير الأوعية) .

سأجلسك معى عند واحد من هؤلاء الأطباء الذين ينتمون إلى هيئة الأطباء Cardiology Staff بعد أن انتهى من معمل القسطرة . هذه هى أولى المرضى وهى سيدة فى الرابعة والستين من عمرها نطالع فى ملفها المتضخم تقريراً مطولاً بنتيجة الفحص الأكلينكى الذى أجرى لها ، والفاحص ليس معنا ولا أمامنا وكأننا إذن فيما نسميه فى امتحان الدكتوراه المصرية بالحالة المطولة التى يفحصها الفاحص (طالب الدكتوراه) ويكتب كل شىء عنها ويمضى لحال سبيله من دون أن يحضر أمام الممتحن ! الفحص أكثر من ممتاز ، دقيق ، وشامل ، ومنظم ، وقد استطاع الفاحص أن يستقصى كل شىء تقريباً حتى تاريخ العائلة كله بدءاً من الأم والأب والأخوات .. إلى الجدود إلخ . وكيف

انتقلوا إلى العالم الآخر . صدق أو لا تصدق أن الذى يتولى هذا الفحص ممرضة (أو ممرض) على مستوى عال من الكفاءة والتمرين والدراسات العليا بعد نيابة متصلة متواصلة

هذه هى الأشعة وهذا ما نسميه (ظل العملة) فى رئة السيدة والذى قد يوحى لنا أن هناك شيئاً سرطانياً مثلاً قد أصاب هذه الرئة .. وبخاصة أنها مدخنة لم تتوقف عن التدخين ، وأن أشعتها منذ ٤ سنوات لم تكشف عن هذا الظل . السيدة لم تأت إلينا لهذا السبب بالطبع وإنما جاءت تشكو سرعة ضربات قلب ، ورسم القلب ينبىء عن أنها مصابة بالرجفان الأذينى Atrial Flutter وهى حالة علاجها سهل وميسور ولكنه سيدوم معها لفترة طويلة واجتماع هذه الحالة مع شىء فى الرئة لا بد أن يجعلنا نبحث عن الطبقة البطانية من القلب وهل أصابها ارتشاح أم لا . وفيما عدا هذا ليس هناك ماتشكو منه السيدة سوى أنها تظن أن هذه الضربات قدتكون نتيجة لحالة الضيق التى اعترت أحد شرايينها التاجية من قبل واستدعت توسيعه بالبالون ـ وأودعت فى ملفها صور شرايينها قبل التوسيع وبعده بما ينبىء أن عملية التوسيع بالبالون قد نجحت . و يضم ملف هذه السيدة مالا يقل عن مائتى صفحة . و ليس فى تحليلاتها الحديثة إلا زيادة فى نسبة Alkaline Phosphatase وهى زيادة يمكن التعويل عليها فى ترجيح احتمال وجود إصابة ورمية ما .

و بعد الفحص اكلينكى كامل يضع الطبيب قراره أمام مريضته :

□□ لابد من إجراء أشعة مقطعية على الصدر ، ولا بد من إجراء تحليل الدرن. و يقوم الطبيب بنفسه إلى سكرتارية العيادة الخارجية للتوصية على تنسيق هذه المواعيد فى الغد ثم يعود إلى مريضته بالمواعيد !!

□□ لا بد من إجراء تحليل للغدة الدرقية رغم أن الفحص الإكلينيكى قد أظهر سلامتها ولكن لا بأس من الأطمئنان ..

□□ فيما يتعلق بعملية التوسيع وتقييم مدى نجاحها لا بد من إجراء اختبار رسم قلب بالمجهود بعد الفراغ من التحليلات السابقة .. وفى ذات الوقت لا بد من فحص القلب بالموجات فوق الصوتية !!

□□ لا بد من أن يتولى طبيب صدر فحص الصدر وأشعته ونتائج الأشعة المقطعية .

□□ لا بد من إيقاف التدخين . لا بد من فحص الثدى كل عامين ، ومن المرور على طبيب أمراض النساء والولادة كل عامين .

□□ هذا هو الديجوكسن وهذه هى جرعته!

الحالة الثانية رجل قارب الثمانين تصحبه زوجته ، يفاجئة ظلام أمام عينيه Syncope حيناً بعد حين . له آراؤه الذاتية فى الطب والأدوية .. الطبيب يحترم آراءه من دون أن يسلم بصحتها ، والمريض معتز بآرائه .. والطبيب يكرر احترامها ثم يلفت نظره إلى أنها آراء شخصية . وسوف نجرى لك ياسيدى الفحوص الكفيلة بأن تكتشف سبب هذا الذى يحدث لك وإذا استدعى الأمر علاجاً فى المستشفى كمريض داخلى فسوف نخبرك بالتشخيص ولك وحدك مسئولية اتخاذ القرار ... قد تحتاج إجراء دراسات كهروفسيولوجية قد تقتضى أسبوعين من البقاء فى المستشفى ، ونحن نعرف أنك لا تريد ذلك ولكننا سنرى فى الغد فى معمل القسطرة ما هو القرار الأمثل لحالتك .. وهذا المريض لا يقل إرهاقاً لطبيبه عن أى مريض من مرضى الشرقية الذين يقتلون الدكتور لطفى شهوان كل ظهيرة وكل مساء .. والصعوبة فى هؤلاء المرضى ياسيدى القارىء وأرجو ألا تكون منهم أنهم يريدونك أن تؤمن بما يقولون من تفسيرات ، لأنهم يرونك تؤمن على مايروون من أعراض! وشتان بين الحالين ! ثم إنك إذا جاريتهم من باب أدب الاستماع إلى محدثك للنهاية أصبحت فى نظرهم لا مجرد مؤمن فحسب على كلامهم ، ولا مجرد مؤمن بكلامهم ، وإنما أصبحت بحكم هذا الإيمان

الظاهرى الذى يتـوهمونه قد أصابك واحداً من الاتباع الـذين عليهم طاعة من يؤمنون به !!

ربما كان من الصعب عليك ياسيدى القارىء أن تتصور أن هذا يحدث ، ولكن الأطباء الممارسين يعـرفون أن الـذى يحدث ليس إلا الصورة المكبرة من هذا التصويـر اللطيف الذى يكتبه واحد منهم فى ساعـة صفاء وتأمل ورضـاء نفسى .

لا بد من الوقوف واستئـذان هذا المريض وزوجته .. والطبيب يقف ولكنى غير قادر لأنى أعـرف أن مثل هذا المريض سيـوقف الطبيب بعد كل هـذا مرة أخرى وأنا لسـت غير قادر على الوقوف أثناء هـذا الاستيقاف ولن انهض من كرسىٍّ حتى يفتح الطبيب بـاب الحجرة بيده اليسرى ويمد قـدمه اليمنى إلى خارجها .. وأقول لك أننى كنت على حق لأن مد يد الطبيب اليسرى إلى الباب لم يحدث إلا بعد عشر دقـائق ومد قـدمه اليمنى إلى خـارج الحجرة لم يحدث إلا بعد عشر دقائق أخرى .. وكانت الدقـائق العشرون بالطبع كافية لاصابتى أنا الصائم المعانى من آثار التخدير فى الضـحى باغماء حقيقى لا مجرد هذا الذى يشكو منه مريضنا فى بعض أحيان متفرقة .

المريض الثـالث رجل وسيم ضخم البنيـة ، يقدمنى إليـه الطبيب فإذا بـه يعرفنـى تماماً ، ويقول لنـا إنه رآنى من قبل حين كـان بأعلى Upstairs نعم أنا أعرف وجه هذا الـرجل وقد تذكرته من أول نظرة ، ولكنى أحسبـه أحد الذين حضرت قسطرتهم .. والقسطرة تجرى فى نفس الدور الثانى.. كيف يقول هذا الرجل بأعلى .. أهـو لا يعرف الأدوار !! ولكنى سرعان ما انتبه إلى الـرجل وهو يسألنى كم يتبقى من رمضان ياسيدى !! ياالله !! الرجل يعرف أننى صائم فى رمضان .. هذا لا يتاح لمريض القسطرة الذى ندخل فيه على عجل بعيداً عن كل طعـام وشراب .. الآن فقط تذكـرت .. هذا المريـض زرناه بعـد عملية تـوسيع

الشرايين وكان فى الدور السابع .. أصاب المريض وأخطأ الطبيب الذى يحسن الناس فى كل مكان الظن بذاكرته الحديدية .. أو التى علاها الصدأ ، و علاها الصدأ تعبير متفاءل بديل عن التعبير الأكثر صواباً وهو أنهكها الصدأ كما ينهك الحديد .. وليت ذاكرتى كانت خشبية فقط !!

هذا الرجل يتعاطى ما لا يقل عن اثنى عشر دواء ومن واجبنا اليوم الخميس أن نعيد تنظيم هذه الأدوية له قبل خروجه بيومين فمن المقرر أن يخرج السبت ولا بد من أن نطلع على آثار سياستنا الدوائية فى خلال الساعات الثمانى والأربعين القادمة قبل أن يخرج ويسافر ويشكو بالتليفون!! هذا الرجل تصحبه زوجته وهى سيدة ممتازة ، لا تزال رغم سنواتها السبعين محتفظة بروح التلميذة المجتهدة ، معها بطاقات صغيرة بتفصيلات كل شىء، بالأمس صباحاً فى الثامنة صباحاً أكل زوجها كذا وكذا ، وبعدها بسبع دقائق تقيء تقريباً كذا وكذا ، وبعدها بساعتين تناول مشروباً وفى الثانية وعشر دقائق اشتكى من كذا .. ثم إنه فقد حوالى كيلو جرام من وزنه ! كان مائتى رطل وأصبح ١٩٨ ، ولا تنس ياسيدى أنه حين دخل المستشفى كان وزنه ٢١١ رطلاً . وكل دواء وكل جرعة مسجلة فى هذه البطاقات الصغيرة التى تحملها هذه السيدة العظيمة فى جيب معطفها ومعها قلمها ، وهى تستمع إلى كل ملاحظة يبديها الطبيب وتسجلها من فورها فى الموضع المناسب من هذه البطاقات وزوجها هو الآخر رجل عظيم ، نقاشه يعطيك الإيحاء بأنه من الذين يجيدون معاملتك على أنك برىء حتى تثبت إدانتك مع إيمانه التام بأنك متهم حتى تثبت براءتك! وأنتهز فرصة انشغال الطبيب الأكبر فى الرد على تليفون لأسأل السيدة عن مهنة زوجها .. كان ياسيدى قبل تقاعده يعمل فى شركة تأمين ، كان يتولى فحص قضايا التعويضات كلها . صدق رسول الله : اتقوا فراسة المؤمن! .

ها نحن ننتهى مع السيدة إلى إيقاف حبوب البوتاسيوم نهائياً ، وإلى

الإمساك عن مجموعة أدوية المعدة والأمعاء والكولشسين الخاص بالنقرس حتى تهدأ المعدة من تهيجها ، ثم ها نحن نعيد تنظيم جرعات الكابوتين والكورداورون والديجتالز واللازكس كل هذا قبل أن نقوم إلى حجرة الكشف .

فى حجرة الكشف يكتشف الطبيب أن جرحاً فى الساق لم يلتئم من القصد الأول .. فيذهب بنفسه إلى السكرتارية ليستدعوا أحداً من الجراحة .. لا بد من أخذ مسحة من الجرح لإجراء مزرعة ـ و يأتى رئيس التمريض الجراحى ويتولى تنظيف الجرح وربطه ـ وها نحن نضيف مضاداً حيوياً جداً هو الأوجمنتين ولا بد من كتابة روشتة للسيدة بالأدوية التى ستحتاجها طيلة شهر كامل وباعدادها على وجه التحديد ـ تسعون قرص من هذا ، وأربع وعشرون من ذاك ، وثلاثون من ذلك ، وهكذا وليس هناك شىء بالتقريب فى هذا البلد ، فالتحديد قد يكلفهم شيئاً من وقتهم عند التخطيط ولكنه يوفر لهم أضعاف ما ينفقون فيه .

بعد كل هذا يتلطف الطبيب فى إخبار الزوجة بأنه سيكون سعيداً لو طلبه طبيب الولاية التى يقيمون فيها تليفونياً ، وسأله عن كل شىء أو عن أى شىء فإن ملخص الخروج لا يغنى شيئاً عن حديث التليفون!! مع أن هذا الذى يسمونه ملخص الخروج ست صفحات مكتوبة على خير ما تكون الكتابة على الآلة الكاتبة وفيها كل شىء .. ولكنه معنى آخر من معانى الإنسانية! والسيدة تعقب وتحكى لى أنهم كانوا فى زيارة إبنتهم قرب بوسطن وكانوا يظنون أنفسهم يعودون إلى ولايتهم فلوريدا بعد أسبوع وهاهم لا يعودون إلا بعد ستة أسابيع!!

أظننى ياسيدى القارىء قد أطلت عليك فيما لا أظنك مغرماً به من هذا الذى نراه كل ساعة أو فى كل ساعاتنا .. لا عليك ولا علىّ من هذا التعذيب. تريدنى ياسيدى أن أنتقل بك من حجرات الكشف الباطنى إلى معامل القسطرة وعندك حق .. لك الحق فى أن تمل عملنا الإكلينيكى وأن تمل القراءة

عنه فى كتاب رحلات .. ولكنى لا أظن أن لى الحق فى أن أتجاهله وأنا أحكى لك .. هل كان فى وسع المتنبى أن يسكت عن شعب وما فيه ؟ نعم أن الشِعْب لشىء جميل .. ولكن أجمل منه الحضارة التى نعيشها اليوم .

وأنا أعرف أن مهمتى فى كتابة رحلاتى شاقة عسيرة لأنى لا أصف الطبيعة كما فعل الذين سبقونى .. ولكنى أحاول أن أصف الحضارة ، ووصف الطبيعة لا يستلزم إلا الحاسة الصادقة .. أما وصف الحضارة فيستلزم مع هذه أقداراً متنامية من الدقة والإحاطة والتعمق والفهم والترتيب.. ويستلزم قبل ذلك أن تكون جندياً من جنود الحضارة لا فارساً من فرسان الطبيعة ، أن تكون جندياً قارب نيل الشهادة وأثخنته الحضارة بآثار عمله من أجلها قبل أن تكون فارساً أعطته الطبيعة بقدر ما استمتع بها .

فلنأخذ يوماً من الأيام التى سعدت فيها بالعمل فى معمل القسطرة مع الدكتورين جريجبرا وفكس هذه هى أسماؤهم الأخيرة أما أسماؤهم الأولى التى نتنادى بها فهى فرناندو وجيمس . بدأنا بحالة مريض بالشريان التاجى.. نحاول أن نوسعها بالبالون . لم تفلح محاولة البالون .. كان فرناندو جاهزاً بالآلة الجديدة التى تقطع أو تمزق أو تفتت هذا التصلب الموجود على بطانة الشرايين .. وها هو يفعل ويذيب هذه التصلبات التى فى الجذع الرئيسى للشريان التاجى الأيسر ، و فى الفرع الدائرى. الحالة الثانية ألم فى الصدر غير معروف السبب ، وهو محول إلى هذا الصرح لنرى موقف شرايينه التاجية .. بدأ فيكس فركب القسطرة وأتم كل التحضيرات وحين جاء فرناندو وصورنا المناظر الروتينية كلها اتضح أن شرايين الرجل كلها لا تعانى من أية ضيق .. سجلنا كل هذا وأجرينا بالطبع ما لا بد من إجرائه فى كل حالة وهو تصوير البطين الأيسر بالصبغة بينما كنا ننادى على المريض الثالث فقد أما المريض الثالث أتاه احتشاء قلبى منذ أسابيع ثلاث و اتضح أن سببه خثرة thrombosis

اذيبت فى وقتها . وهو الآن محول إلى القسطرة قبل أن تجرى له عملية الـ - By Pass يفحصه الدكتور جريجيرا فيجد الشرايين كلها مفتوحة ، ولكن الجذع الرئيسى للشريان الأيسر فيه ضيق لا يتعدى الخمسين فى المائة ! ولكن الضيق واضح ومع هذا تمتلىء الشرايين وتفرغ تماماً .. صحيح أن القلب لا يزال متاثراً بالندبة التى تكونت نتيجة الاحتشاء ولكن الإمداد الدموى سليم .. هل تُجرى لهذا المريض جراحة قد تكلفه حياته وهو الذى لا يعانى من شىء الآن! أم نتركه معرضاً لخطرة أخرى قد تكون كفيلة بالقضاء على حياته - وهو فى الخامسة والأربعين . هذا هو السؤال الذى أخذنا نحاول الإجابة عليه لمدة ساعتين .. بعد أن جاء الدكتور تايلور الجراح المحول إليه المريض .. وبعد أن اشترك معنا فى الحديث طبيب القلب الدكتور كايسر .. كنا أربعة نتحدث بينما جيمس صامت .. فلما قاربنا على الإفتراق صمم الجراح الكبير على أن يسأل جيمس ما رأيك وهو يعرف أن جيمس لن يقول شيئاً لأنه لو أراد لقال منذ مرحلة مبكرة ولكن الأستاذ حريص على أن يرضى ضميره الذى تعود على سماع كل وجهات النظر.

أما معامل الموجات فوق الصوتية فتضم ١٦ جهازاً وهى بالتالى قادرة على أن تؤدى ٨٠ ـــ ١٠٠ حالة فى اليوم ـــ ولكنها فى المتوسط تجرى ٢٥ حالة فى اليوم لأنها تعمل كل يوم ولا تكف عن العمل وليس هناك طابور طويل يقف فيقف كل من فيه .

وفى وسع الأمريكان أن يستمعوا إلى الرأى القائل بأنه لا ينبغى لهم أن يشتروا جهازاً جديداً ولا أن يضيفوا إلى الأجهزة الجديدة آخر ما دامت الأجهزة الموجودة من قبل لم تستنفد طاقتها ٢٤ ساعة .. كما ينادى بعض البيروقراطيين المصريين الذين يرتدون مسوح الثورية الشديدة فى الوقوف أمام كل توسع فى الامكانات الموجودة فى مواقع الإنتاج . ولكن هؤلاء الأمريكيين

قوم تعلموا منذ زمن حكمة الخالق جل علاه الذى جعل لكل عضو من أعضاء الجسم احتياطى كبير بحيث لا يحس الجسم أى أثر طارىء يعترى أى عضو من هذه الأعضاء.

فنيو الموجات فوق الصوتية والممرضات هم الذين يقومون هنا بالفحص، و لكن الأطباء وقد خلت أيديهم من المسابر (المجسات) يقفون على رؤوس هؤلاء فى كل حين يراقبون ويصححون ويتدخلون ويعيدون منظراً أو صورة ويتأكدون من قياس أو نتيجة ويناظرون جلطة أو كتلة أو أنوريزماويتتبعون مسار حلقة عضلية أو جهازاً من أجهزة تدعيم الصمام المترالى .. وهكذا

وكل هؤلاء عندهم فكرة أننى قادم اليوم وأن « كيف» ينتظرنى ولكنه مع حالة فى حجرة ، ويتكرر أمامى اسم «كيف» هذا وفى النهاية إذا به دكتور عاكف أبو الرميلة من الضفة الغربية ، وفيما بعد أسبوعين وجدت ممرضات الأدوار العليا يختصرون اسمه بطريقة أخرى فيسمونه الدكتور «أبو» لأنهم لايعرفون كيف ينطقون «الرميلة» وقد سبقه إلى هنا طبيب فلسطينى آخر كان واحداً من فسلطنيين عديدين هيأ لهم الدكتور جبران الفرصة للعمل فى المستشفى من خلال هيئة فلسطينية محترمة مقرها فى سويسرا تتولى تمويل تعليم هؤلاء إلى الحد الممتاز الذى يجعلهم بمثابة مراجع عليا فى الضفة الغربية المحتلة . وهذه الهيئة الممتازة لا تكتفى بتعليم هؤلاء وإنما تزودهم فور تخرجهم بالأجهزة التى يعملون عليها ـ ويحرصون فى اختيار هذه الأجهزة أن تكون أحدث وأعظم الأجهزة المتاحة ـ وفى القدس الآن واحداً من أحدث أجهزة الموجات فوق الصوتية يتولى تشغيله طبيب فلسطينى نابغ تلقى تدريبه هنا فى كليفيلاند .

ويبدو أن المجتمع الدولى قد بدأ ينظر نظرة مختلفة إلى عرب الضفة الغربية وغزة ، فهذا مكتب الميدايست يبتعث الممرضات من الضفة الغربية إلى

مستشفى كليفيلانـد ، والضوء الاخضر فى الوظـائف الأمريكية مضـاءاً تماماً اليوم أمام الفلسطينيين، و الله تعالى أسأل أن يفك كربهم جميعاً .

وأحب أن أتناول الآن الحديث عن زملائى فى الرعـاية المركزة فقد يعطيك هذا صورة حية عن الأطباء الأمريكين الشبان .

هناك هيكل واضح فى الرعاية كما فى كل مكان.

هناك ثلاثة نواب يقضون فترة نيابتهم.

وهناك ثلاثة زملاء فى عامهم الأول من الزمالة .

وهناك اثنان من الزملاء فى أعوامهم المتقدمة من الزمالة.

أما النواب الثلاثة فهم مور More وهو شخص ضخم البنيـة حسن الخلق وحسن الخلق أيضاً عمل نائباً للعظام فى بدايـة نيابته ولكنه سرعان ما تحول إلى الأمراض الباطنة وهو جيد الاستماع جيد الفهم .

جاستون شتيرن Stern تخرج تبعاً للنظام الـذى يعطى شهادة D.O. وهو دودة كتب كما يقولون ولكنه لطيف ومتواضع رغم كل ما قد يبدى من غرور، إذا قدم حـالة وكثيراً مـا يفعل فإنه يفيض فى تفصيـلات لا أول لها ولا آخر ، ولكن ميـزته الكبرى ـــ كطبيب ـــ أنه حـريص على تفسير كل شىء فى ضـوء مايعرف وحين لا يعرف ـ وقليلاً ما يحدث ـــ تراه ينتقد نفسه إلى حد أنه ذات مـرة بدأ حـديثه عن الحالـة (وكانت حـالة لاعتـلال عضلة القلب من النـوع المتمدد) بالقول بأنه لا بد أن يـرميه الأستاذ من الشباك !! هكذا لأنه لم يحقق نجاحاً فى العلاج.

النائب الثالث هـو نبيلة رحمة الله باكستانية وقد ابتـدرتنى فى أول أيامنا بـالقول : أنت صـائم ومن المفترض أننى كـذلك ولكننى كما تـرى لا أستطيع الصوم فى ظل هذا العمل ، وإلا كانت حماقـة ! ونبيلة ملمة تماماً بكل المنهج ـ

عندهـا فكرة واضحة عن كل فصـول كتاب «القلب» وربما ساعـدها علّى ذلك أنها تحمل فى جيب معطفهـا الأبيض مـذكـرات ملخصـة لـلأجـزاء التى لم تستوعبها بعد من موضوعات القلب .

وقـد أتيح لى ذات يـوم أن أطلـع على كتـابها الخاص « سيسيل لـوب» فى الأمراض الباطنة فأدركت كم عانت هذه الفتاة فى سبيل دراستها للطب. ولابد أن أسجل أن " نبيلـة " التى كانت أصغـر من ميشيل ومن جاسـون لم تكن تقل عنهما أبداً لا فى مستواها العلمى ولا فى المستوى المهنى.

يساعد هـؤلاء النواب الصغار أو يشرف عليهم ثلاثة آخـرون من الزملاء الـذين أنهوا لتـوهم فترة النيـابـة ريتشارد جـريم نموذج بـارز للوسـامة الأمريكيـة حيث تجد شعره قد نسُق بـالليل وكل ليل بحيث يعطى فى الصباح ذلك المنظر الجميل لخصلة تأتى من الشمال إلى اليمين تتقـدم الرأس بخمسة سنتميترات على الأقل ـ ووجهـه الأبيض وعيونـه الزرقاء يعطيـان لهذا الشعر الأصفر بعـدين آخرين ـــ ثم هو هـادىء الأعصاب ، خفيض الصـوت ، وهو النموذج الأمثل فى نطقه الأمريكى للغة الإنجليزية (على طريقة الفرنسيين) بما يحذف من ثلاثة أرباع الكلمة.

واعتقـد أنك تعـرف أن الأمريكـان يختصرون كل مـا يمكنهم اختصـاره ويحولون الكلمات إلى وهذا هو الآخر بـدوره يختصر كل الكلمات إلى حرفيها الأولين وحين يفعل ذلك فى براءة يبدو لك كما لو أنه لن يستطيع أن يكمل نطق الكلمة وإلا ذهب ضحية استكمالها ..

ريتشـارد يقضى عامـه الأول فى زمالـة القلب ولهذا يضغط عليه الأطبـاء الكبار بالأسئلة العلمية وينتظرون منه دوماً أن يجيب بمجرد البدء فى السؤال، وكثيراً ما يكون عند حسن ظنهم .

فيليب جرين Green نموذج آخر للهدوء النفسى والتواضع والالمام التام بعمله وبعمل غيره . لا تكاد تدرك أبداً أنه من الفئة المتوسطة بين النواب ، وإنما يعتريك الشعور دائماً أنه من الصغار ، نظراً لتواضعه ، و اندماجه التام فى عملهم . بلا إنه كثيراً ما يتولى قراءة الشيت بدلاً منهم ـ وعلى قدر تعاطفه التام مع زملائه اللاحقين فإنه حريص على أن ينبه إلى أية ملاحظة ذات شأن اكلينيكى تفوتهم أثناء النقاش وهو حين ينبه إلى ذلك خفيض الصوت ، حىّ ولكنه قاطع باليقين .

الثالث Holden كان فى أجازة ولكنه حين عاد كنت قد انتقلت إلى معمل القسطرة فلم أتعامل معه كثيراً ولكنه فيما اتضح من حديثنا المتكرر ولقاءاتنا العابرة شخص نبيه منتبه ، سليم الفطرة.

إذا انتهينا من هؤلاء الستة بقى لنا الإثنان الكبيران . أما كلفن فهو من أصل أيرلندى وهو فى التاسعة والثلاثين من عمره وقد وصل فى الطب إلى مرحلة الـStaff ولكن فى فرع آخر هو طب الطوارىء حيث قضى ٦ سنوات فى طب الطوارئ بالطيران وغيره واكتسب خبرة كبيرة فى هذا المجال ، وكان قد قضى ٣ سنوات نيابة فى الأمراض الباطنة . ثم إذا هو يبدأ الزمالة من جديد فى أمراض القلب. ربما كان محظوظاً أن النظام الطبى سمح له بمثل هذا التغيير بعد كل هذا الوقت ، وربما كان ملاماً من زملائه أن يبدأ من جديد . ولكنه على أى الأحوال سعيد بهذا الذى هو فيه . كلفن هذا هو المسئول عن مساعدتى طيلة وجودى فى الرعاية المركزة وهو لا يدخر وسعاً فى ذلك . له الفضل فى تعريفى على مهل بكل تفصيلات نظام التعليم الطبى فى أمريكا وله الفضل فى تعريفى ـ التعريف العميق ـ بكثير من العاملين فى قسم القلب ومعامله ، وبكل الذين فى الرعاية المركزة بالطبع . وعنده قدرة ممتازة ـ ربما بحكم السن وربما بحكم الخبرة فى تخصصين مختلفين . على مَنْطقة الحوار ـــ اقصد أن يجعل للحوار رؤساً وعناوين كبيرة بدلاً من أن يتركه يمضى خبط عشواء .

ذات يوم بعد ما تعبنا من الوقوف طيلة ساعتين ونصف الساعة فى مرور الرعاية المركزة قلت لـه ولزميلـه مارك لماذا تمرون وقوفـاً ـ لماذا لا تمرون جلوساً؟ قال فى تعاقب : لو كان الأمر بيدنا لمررنا جلوسـا ـ بعد أقل من ٢٤ ساعة كان الأمر بيدنا نحن الثلاثة ـ أرسل إلينا الدكتور جبران لنبدأ المرور ـ نظرنا إلى بعضنـا ودعونا الزملاء والنواب إلى حجـرة المؤتمرات ومررنا ونحن جلوس!! كلفن متزوج مـن زميلة تحمل درجة .Ph.D فى العلوم وتعمـل معنا فى معمل الفسيولوجيا الكهربية (EP) فى قسم القلب ولهما ثلاثـة أولاد صغار لهم أسماء أيرلندية جميلة ـ بارك الله لهما فيهم .

الزميـل الثانى وهو مـارك رجل طيب يبلغ من العمـر ثلاثين عامـاً قضى نيابته فى نيـوجرسى حيث عاش لفترة طويلـة من حياته ـ وحين تقدم لـزمالة القلب كانت رغبته الأولى مايو كلينك وكانت الثانية مباشرة كليفيلاند ـ تحققت لـه رغبته الثـانية ـــ وسط عـدد كبير من المتقدمين لـزمـالة القلب كل عـام فى الولايات المتحـدة الأمريكية . و مارك رجل عملى إلى أبعـد الحدود ، حين أسأله عن شىء فإنه كان يؤثر أن يمضى معى إلى موضعه بدلاً من إضاعة الوقت فى الـوصف الصعب فى مستعمرة كبيرة . آراؤه فى الكتب الطبيـة قـريبة جـداً من رأيى إلى حد كبير. من العجيب أننا كنا نحن الثلاثـة متوافقين تماماً فى صياغة كثير من آرائنا فى أثناء المرور . تجمعنى بالزميـل الصغير موضوعية الرأى عن خبرة تكاد تكون متقاربة ، وتجمعنى بالزميل الكبير منطقية التفكير وتحكمها فى تصريف الأمـور. و مع هذين الـزميلين ومع أمثـالهما فى معامل القسطـرة والموجات فوق الصوتيـة والطب النوىُ من بعد أحسست أننى حيث ينبغى أن أكون منذ زمن طويل ـ لم أحس الغربة لا فى الفكر ولا فى الأداء . كلاهما جدير بالاحترام وباعث على الاحترام وحريص على الاحترام .

أريد أن الخص لك نظـام التعليم الطبى فى ولاية أوهايو كنمـوذج لولايات أمريكـا ـ لأنى أعرف أنك تعـرف أن لكل ولاية نظـاماً ، ولابد عنـد الكلام عن

أمريكا الواسعة من التحفظ ياسيدى ـ ومع هذا فإن هذه الصورة على كل حال سوف تعطيك فكرة عامة عن نظام التعليم الطبى فى أمريكا .

هناك بعد الثانوية العامة كليات ـ هذه الكليات اسمها College يدرس فيها الطالب لمدة ٤ سنوات ـــ بعدها هناك Medical School يدرس فيها الطالب ٤سنوات أخرى . إذن هنا الـــ College التى تناظر كليات الجامعة عندنا فى مرحلة البكالوريوس يتخرج فيها الطالب بما يوازى البكالوريوس ـ ويكون مهيئاً لأن يعمل مثلاً بالتدريس ، أو أن يعمل كباحث ، أو أن يحضر الماجستير أو أن يحضر الدكتوراه فى فلسفة العلوم التى هى Ph . D.

طبعاً قبل كل هذا يتمنى أكثر خريجى الكليات أن يكونوا مهيئين لأن يكملوا دراستهم الطبية فى المدارس الطبية ولكنهم بالطبع وطبقاً للنظام التعليمى ليسوا كلهم مؤهلين لدراسة الطب فى مدارسه .

وفى ولاية أهايو على سبيل المثال أكثر من ٢٠ كلية ـ يتخرج فيها ما يزيد على ثلاثة آلاف ومن بين هؤلاء تتاح الفرصة لأعداد قليلة فى ست مدارس طبية هى على سبيل الحصر على النحو التالى :

١ ـ المدرسة الطبية فى جامعة أوهايو الحكومية فى كولومبوس وتقبل ما لايزيد عن ٢٠٠ طالباً فى العام الدراسى .

٢ ـ المدرسة الطبية فى جامعة كيس ويسترن ريزرف فى كليفيلاند وتقبل حوالى ١٠٠ طالب .

٣ ـ الكلية الطبية فى جامعة سنسناتى Cincinnati وتقبل حوالى ١٠٠ طالب.

٤ ـ كلية أوهايو الطبية فى توليدو وتقبل حوالى ٥٠ طالباً .

٥ ـ المدرسة الطبية فى جامعة رايت الحكومية فى دايتون Dayton وتقبل حوالى ٩٠ طالباً .

٦ ـ كلية أوهايو الطبية فى أثينا ـ أوهايو وتقبل حوالى ٢٠ طالباً .

وهذه الكليـة بالـذات تسير حسب نظام أقل شيـوعاً فى أمريكـا تعطى من خلاله شـهادة .D.O إختصاراً لما يسمى (Doctor of Osteopathic) وهذه الشـهادة فى النظام التعليمى الأمريكى معادلة تماماً لشـهادة M.D.

وبالإضـافة إلى هذه المدارس توجد الكليات الطبية الآتية : ـ

١ ـ كلية أوهايو الطبية فى سنسناتى .

٢ ـ كلية الطب Eclectic فى سنسناتى .

٣ ـ كلية ميامى الطبية فى سنسناتى .

٤ ـ القسم الطبى فى جامعة ووستر ـ كليفيلاند .

٥ ـ كلية توليدو الطبية فى توليدو .

٦ ـ كلية كليفيلاند الطبية فى كليفيلاند .

٧ ـ كلية كليفيلاند Puti فى كليفيلاند .

٨ ـ جامعة أوهايو الحكومية ـ كلية الطب Homeopathic فى كليفيلاند .

٩ ـ جامعة شمال شرق أوهيا ـ كلية الطب فى رووستون .

ويتخـرج من المدارس الطبيـة الست التى ذكـرناهـا عـدد لا بأس بـه من الدكاتـرة يحملون لقب .M.D فيكون أمـامهم طريـق مفتوح على النحـو التالى يبدأون سنة الامتياز Internship تليها سنوات النيابة Residency (التى تؤهلهم لشـهادة البـورد الأمريكيـة فى التخصصـات العـامة) تليهـا سنوات الـزمالـة Fellowship (التى تـؤهلهم لشـهادة البـور الأمـريكى فى التخصصـات الخاصـة كالقلب). فإذا أردت التخصـص فى الأمراض الباطنـة ، فإنك سوف تبـدأ بعام الامتياز فى الباطنة ـــ فهو بمثابة عامك الأول من النيابة وتكـون محتاجاً بعده إلى عامين آخرين فقط لتكون قد قضيت فترة النيابة .

الميزة الكبرى هنـا ـ التى أحلم بأن أجد سبيـلاً إلى تطبيقها فى مصر أن كل الخريجين يقضـون فترة نيابـة حسب ما يـرغبون من تخصصـات ، بل وفى

المكان الذى يرغبونه بقدر الإمكان (تبعاً لترتيب رغباتهم ، كثيراً ما تكون الرغبة الأولى هى الأولى بالتحقيق). و لكن المأساة التى أصرخ منها فى مصر هى مأساة الفرص غير المتكافئة. فعلى حين يلقى الطبيب المقيم الذى نال وظيفة فى الجامعة حظاً ممتازاً فى تعليم ممتاز وفرص ممتازة فإنه أيضاً يحظى ببدء النيابة مباشرة. أما الباقون فإنهم غالباً ما ينتظرون مالايقل أحياناً عن ٣ سنوات لبدء النيابة . ربما لا يكون الفرق بين الواحد منا من المحظوظين وبين الآخرين إلا درجات قليلة. ومع هذا يكون الفرق حوالى ثلاث سنوات فى بدء الخبرة الاكلينيكية التعليمية. و المشكلة ليست فى السنوات الثلاثة وإنما فى تباعد الفترة بين الدراسة العلمية [بجانبيها النظرى العملى والاكلينيكى] وبين التطبيق الميدانى والاعتماد على النفس .

الميزة الثانية التى أحب أن أتحدث عنها هى أنهم لا يبدأون نيابات فى الباطنة الخاصة والجراحة الخاصة كما حدث وتوسعنا فى هذا الاتجاه فى جامعات مصر. الله وحده يعلم أيهما الصواب أن نبدأ بالتخصصات الدقيقة فى مرحلة النيابة أم أن نؤجلها إلى مرحلة الزمالة .

على أية حال أحب أن أضع أمامك صورة لتوجهات خريجى إحدى هذه المدارس الطبية الستة فى صياغة مستقبلهم العملى . المدرسة هى مدرسة رايت المسماة على اسم الأخوين أصحاب محاولة الطيران المشهورة . يتخرج هذا العام ٨٤ سيتوزعون تبعاً لرغباتهم على النحو التالى: ٢٤ فى الأمراض الباطنة العامة ، ٨ فى طب الأطفال ، ٩ فى النساء والتوليد ، ٩ فى الجراحة ، ٤ فى الأشعة، ٢ فى التخدير .، ١٩ فى طب العائلة و٥٢ من الخريجين بنات ، ومن هؤلاء قضت إحداهن أسبوعين معنا فى قسم القلب وكانت تخطط أن تقضى فترة نيابتها فى الأمراض الباطنة فى مستشفى صغير اسمه مستشفى St. Lukes Hospital وهى تفضل العمل فى هذا المستشفى الصغير على العمل فى كليفيلاند

لانها أثناء دراستها درست فى الإثنين ووجدت [وهى على صواب] أن العمل فى سان لوكس سيكون أكثر فائدة وإمتـاعاً لها لأنها ستشاهد حالات كثيرة من الأمراض شـائعة ومـوجودة فى كل مكان، أمـا فى كليفيلانـد فهى لن ترى إلا الحالات التى تقدم بها المرض واحتاجت القدوم إلى هذا الصرح العظيم .. أليس هذا التفكير لشـابة فى مقتبل عمرهـا دليلاً على بشـائر النجاح العملى والمهنى . وتضيف كيـه (وهـذا هـو اسمها وهـو اسم جـاميكى ينطق كحـرف الكيـة الإنجليزى تماماً) أن كليفيلاند كلينك ليس فيها النظام الجميل المريح الذى فى ذلك المستشفى الذى عرفت الناس فيه ودرست أحوالهم جميعاً.

بقى أن أطلعك على جانب مهم من حيـاة خريجى الطب وطلابه فكيـه هذه متزوجـة منذ أربع سنوات مع تـأجيل الإنجاب . ، فى عاميهـا الأول والثانى فى المدرسـة الطبية درست التشريح والبيـولوجى والفسيـولوجى والبـاثولـوجى والفارماكـولوجى والميكرولوجى والـوراثة. و فى عامها الثـالث آثرت الجراحة والنسـاء والأطفـال وطب العائلة والنفسية. وفى عـامها الرابع درست البـاطنة والطوارىء والأشعة والتخدير والقلب والأعصاب والعظام.

أحب أن أحـدثك بعد هـذا عن طالب الطب الأمـريكى . ولطالب الطب هنـا احترام شـديد.، أمـامى بالصـدفـة على مكتب قاعـة الاجتماعات خطـاب من مؤسسة كليفيلاند كلينك التعليمية لطالب فى السنـة الرابعة أنه قد رُشح طالباً فى قسم القلب لمدة شـهـرين وأن لـه إذا وافق على ذلك أن يحضر صبـاح يـوم الاثنين ، إلى مبنى التعليم ، فيتسلم الكارنيه الأصفر الخاص بـه ، وهو كارنيه بـالاسم بلا صـورة ، وأن يتسلم معطفين ، ولـه أن يترك سيـارته فى الأمـاكن التالية ... وأن يحضر يومياً من السابعة والنصف وحتى الخامسةمن الاثنين وحتى الجمعـة ، وأن الطبيب (فلانـاً) سيكون هـو المسئول عن تعليمـه وأن السكـرتيرة (فلانـة) هى المسئولـة عن الأمـور الإدارية التى قـد تعرض لـه .

وتحضر المؤتمر من مؤتمرات الأقسام فتجد هؤلاء الطلاب (بنين وبنات) هم أكثرنا جميعاً أناقة وشياكة .. فشعورهم خرجت لتوها من الصالونات ، وربطات عنقهم هى الأحدث ، والأجمل ، وهى المودة ، فمصانهم هى الألمع والأكثر جاذبية .. وهكذا ، أصدقك القول أنى بعد حين من الوقت أصبحت قادراً على تمييز الطلاب حين نكون فى قاعة المؤتمرات وهى مظلمة نشاهد شرائح أو أفلاماً بمجرد أن أنظر إلى رءوسهم وأعناقهم وقبل أن أصل إلى صدورهم حيث يضعون الكارنيهات الصفراء.

ومعنا فى قسم القلب طالب نشيط هو تيم ، فى السادسة والعشرين وعروسه فى الثامنة والعشرين ، وهو يقيم هنا فى كليفيلاند وهى تقيم فى كنت - حيث يقيم والداه ، وصاحبنا لا يغادر المستشفى قبل أن يطمئن على كل مرضاه ، ويبلغ النائب والممرضات بملاحظاته عن أية اضطرابات فى نظام القلب ، وروح المسئولية عنده فى الحقيقة تبشر بكل خير لهذا الشعب الأمريكى الذى يعتقد العالم فى إهماله!!، وفى كل أسبوع يذهب إلى كنت مرة واحدة ليرى خطيبته لأن السيدات يخترعن لك مشكلات كثيرة ياسيدى إذا غبت عنهن لفترة ما !! هذه هى الكلينك التى ليست تابعة لكلية من كليات الطب ، ومع هذا أبت على نفسها إلا أن تنشئ مؤسسة تعليمية لنفسها - وأن تتولى تعليم النواب والامتياز والزملاء والممرضين والفنيين بطريقة نموذجية جعلتها بالفعل واحدة من المؤسسات التعليمية فى الطب الأمريكى وإن لم تكن كلية طب.

وفى أثناء إقامتى فى كليفيلاند وبعد كتابة هذه السطور، علمنا من الجرائد أن اتفاقاً قد وُقع بين جامعة أوهايو الحكومية وبين الكلينك لتتولى الكلينك التدريس لطلاب مرحلة البكالوريوس كما تتولى التدريس للمتخرجين ومن المنتظر أن يبدأ هذا النظام من العام الدراسى القادم مباشرة .

دعنى أحدثك عن بعض النشاط التعليمى الذى أشارك فيه فى قسم القلب ففى كل يوم فى الصباح المبكر ما بين السابعة والنصف والثامنة والنصف يجتمع كل زملاء القلب فى قاعة مؤتمرات القلب ثلاثة أيام ، وفى قاعة مؤتمرات الباطنة يومين آخرين حول شىء ما ـ يوم الأربعاء مثلاً هو يوم الموجات فوق الصوتية تعرض عليهم فيها حالات مشوقة أو صعبة أو نادرة.

فى كل يوم من الأيام الأخرى نستمع جميعاً إلى محاضرتين ممتازتين، ربما عن شىء جديد ، ربما عن رؤية جديدة لمشكلات طبية قديمة .. ومن أبدع ما يمكن تلك المحاضرة التى اشترك فيها أربعة .. طبيب عرض المعلومات الاكلينيكية وآخر عرض نتائج الفحص بالموجات فوق الصوتية وثالث عرض نتائج الفحص بالرنين المغناطيسى ورابع عرض نتائج الفحص بالقسطرة .. وكانت الحالة التى ناقشنا تشخيصها بكل هذه الوسائل تمزق الأنوزيميا التى فى جيب فى القلب اسمه جيب فالسفا ، شىء عظيم عظيم . هكذا تمضى الساعة الأولى من وجودى فى المستشفى فى كل يوم وبعد ذلك ينصرف كل إلى وحدته أو معمله الصغير.هل أحدثك عن النشاط التعليمى فى وحدة الرعاية المركزة مثلاً.. ريثما استقر الجميع فى أعمالهم فى الوحدة وكانوا كلهم جدداً .. بعد أسبوع تقريباً وزع الدكتور جبران عليهم أوراقاً علمية لكى يحضروها ويلقوها ويناقشوا فيها .. متى سيتم ذلك .. عندما تهدأ الأمور فى حوالى الثالثة عصر كل يوم. وكل خميس يأتينا فى وقت الغذاء ما بين الساعة الثانية عشرة والساعة الواحدة واحد من أطباء الأشعة هو الدكتور وايت وهو شعلة من الذكاء والمنطق والخبرة (الإكلينيكية والإشعاعية) ومعه مجموعة هائلة من أفلام الأشعات الممتازة يضعها واحداً بعد آخر ، أو اثنين وراء اثنين على الفانوس أو الفانوسين ويشرح ما نسميه بالنظرى على الأفلام مباشرة !! رائع وأكثر من رائع .. ثم بعد أن يعطينا المعلومة يكثر من التطبيقات عليها.

فى ثانى مرة كان زميلاى مشغولين بحالة من الحالات الحرجة ، فأصبحت

أنا تقريباً أقدم الموجودين وأكثرهم خبرة على حد تعبيرهم ـ وعلى هذا كان المترددون فى التشخيص يأخذون جانب الأقدم حين يعجزون عن تكوين رأى ذاتى ـ والحمد لله قلما خذلهم الوقوف إلى جانب الأقدم.

وانتقل للحديث بك عن النشاط التعليمى فى حجرة جانبية من معمل وظائف القلب .. لا يمرُّ مريض على المستشفى أو العيادات الخارجية إلا ويؤخذ له رسم قلب ، ويوضع هذا الرسم بالطبع فى ملف هذا المريض. ولكن كل هذه الرسومات تسجل على شريط أو كاسيت وترسل الكترونياً إلى هذه القاعة المسماة بقاعة رسومات القلب .. حيث تطبع كل الشرائط القادمة وتوضع على هذه المنضدة الطويلة التى عليها كل وسائل القياس الخاصة برسومات القلب.. بدءاً من المساطر إلى الفرجارات وحتى العدسة المكبرة .. إلخ. هذه الأدوات البسيطة التى نحتال بها على فهم أسرار رسم القلب الكهربائى.

ويأتى زميل من زملاء القلب Fellow فيتولى قراءة الرسومات جميعاً بعد ما قرأ الكمبيوتر ، فإذا وافق تشخيص الكمبيوتر كتب أنه موافق ووقع بحروفه الأولى ، وإذا أراد تصحيح شىء صححه ، ووقع ، وإذا أراد إضافة شىء أضافه ، ووقع.

وهناك خمسة من أساتذة القلب Staff يتولون القراءة النهائية لكل واحد منهم يوم ، ويوم الثلاثاء هو يوم الدكتور القلبينى ، ويوم الأربعاء هو يوم الدكتور هودجان ، ويوم الخميس هو يوم الدكتور ويتللو ، ويوم الجمعة هو يوم الدكتورة جاميس وهى أصغر أعضاء هيئة أطباء القلب على الإطلاق.

كان من حظى أن أتولى وظيفة الزميل القارىء لمدة أسبوع كامل، فى اليوم الأول كان معى زميل وفى الأيام الثلاثة التالية كنت بمفردى. ربما تعرف من عيوبى أنى عجول فى كل شىء .. وما إن فهمت نظامهم فى التعقيب والإضافة إلا كنت أذهب مبكراً بحيث أصبح الفنيون والعاملون فى حجرة رسم القلب

لايلاحقوننى بالرسومات ويعجبون من تواجدى المبكر وتركيزى وسرعتى .. وكان أعضاء هيئة الأطباء كريمى الخلق معى إلى حد كبير، كانوا بالطبع يشجعونني ، وقد تعلمت منهم الكثير جداً .. ولابد أننى تعلمت من هؤلاء مايعلمه لنا أساتذتنا فى مصر من النظر إلى الحالة الإكلينيكية للمريض قبل التعليق على رسم القلب والكمبيوتر ياسيدى هو الآخر لا يغفل ذلك مع أنه بلا قلب على حد تعبير الأدباء الذين لم يعاشروه !!.. فهو يذكر لك القسم من المستشفى الذى فيه المريض ، ويذكر لك عمره ، ويذكر لك الأدوية التى يتعاطاها كذلك، بالطبع ليس كل الأدوية وإنما تلك التى لها تأثير مباشر على رسم القلب أو على العناصر المحددة لكثير من التغيرات فى رسم القلب كالبوتاسيوم والكالسيوم. على أن أعظم ما يحب أساتذتى فى مصر أن يسمعوا عنه فى هذه الحجرة هو ذلك النظام المحكم الذى يسمح للأستاذ حين يريد أن يراجع هذا الرسم لهذا المريض على رسم قديم له أن يجد الرسم القديم فى دقيقتين أو ثلاثاً ، ما عليه إلا أن يطلب الرئيسة ، والرئيسة ستسأل الكمبيوتر والكمبيوتر يعطيها تاريخاً قديماً رسم فيه القلب من قبل ، والرئيسة تأمر الشرائط المغناطيسية بأن تخرج لنا صورة من هذا الرسم القديم وتناول لنا الرسم القديم بعد دقيقتين من طلبنا له !!

أعرف حالة لأستاذ طب مصرى سافر للعلاج ، وأجرى قسطرة.. كان يغنيه عن سفره وجود رسم قلب قديم ينبىء عن أن هذه التغيرات التى وجدت حديثاً كانت بسبب مرض حديث أو أنها لم تكن بسبب مرض فى القلب ، أوأنها من باب الاختلافات الطبيعية. وأعرف حالات كثيرة مرت علينا خلال يوم الدكتور هودجمان لم يكن لها حل إلا التحويل لإجراء دراسات الكهرباء الفسيولوجية ما لم يوجد لها هذا الأرشيف العظيم الذى ساعدنا على توضيح طبيعة تسارع ضربات القلب هل هى من فوق الأذين أو من البطين . كان الدكتور عبد العزيز الشريف يقول دائما أن أصعب فصل فى علم القلب هو

اللغط الانقباضي .. وكنت أستعير مقولته مع تغيير الموضوع إلى فصل « تسارع ضربات القلب من الـ ق ر س العريض Tachycardia of wide QRS » ومع هذا فانا الآن أعتقد أن الأرشف الجيد يزيل صعوبة هذا الفصل الذى أتحدث عنه بحيث تبقى مقولة الدكتور عبد العزيز الشريف أقرب إلى الواقع فى وجود نظام جميل وفى غياب جهاز الموجات فوق الصوتية . أما فى وجود التكنولوجيا (جهاز الموجات فوق الصوتية) وغياب النظام (الأرشيف الجيد) كما هو الحال فى مصر فستبقى لمقولتى السيادة حتى يسود النظام . وبعد أن ننتهى من تعليقاتنا على رسم القلب يتناولها الفنيون فينقلون تعليقاتنا إلى الكمبيوتر ويرسلونها إلى الأقسام المعنية بمرضاها إذا كانت لها علاقة مباشرة بتشخيص أو علاج ثم يضعون هذه الرسومات بكل ما عليها من تأشيرات وتعليقات فى جانب من الحجرة تحت لافتة تقول إن هذه الرسومات متاحة لمن يريدها من الأطباء والطلاب والنواب والممرضات يقرأونها ويتعلمون منها شريطة شىء واحد ، ألا يعيدوها إلى هذه الحجرة حتى لا تحدث ارتباكاً بوضعها مع الرسوم الجديدة .

إلى عهد قريب كانوا يقرأون الموجات فوق الصوتية بنفس الطريقة ، ولكنهم منذ شهور كفوا عن هذا اللقاء الذى كان يعقد فى الخامسة من بعد الظهر، وأصبحوا يكتفون بعرض أسبوعى للحالات النادرة أو الطريفة.

وفى معمل وظائف القلب أيضا مكتبة تعليمية عن استخدامات الموجات فوق الصوتية فى كافة أمراض القلب ، بعض هذه الشرائط انتجته جمعية القلب الأمريكية بالتعاون مع مايو كلينك، وبعضها الآخر انتجته الأقسام العلمية فى الشركات المنتجة لأجهزة الموجات فوق الصوتية كشركة الكاسون وشركة هولت بيكارد .. وما عليك إلا أن تضع الشريط وتقرأه كما يقرأ الناس شرائط الفيديو .. تُبطىء الشريط حين تحتاج التأمل وتسرع حين تكون فى حاجة إلى تخطى الفقرة كلها.

وفى تقاريـر القسطرة التى يـوسعون بها الشرايين يحرصـون على وضع الصور المطبوعة من الافلام فيما قبل التوسيع وفيما بعده لكل شريان أو فرع من شريان أو جزء من شريـان أجريت له عملية التوسيع .. سواء بـالبالون أو بتقطيع الجلطة أو بوضـع الـ Stent فى الجدار .

فإذا تركنا قسم القلب إلى قسم الباطنة العامة وجدناهم يجتمعون أيضاً فى مؤتمرات صباحية ، أنا مشغول عنهـا بالطبع بمؤتمراتنا الصباحية ، ولكننى اكتشفت أنهم يجتمعون كل ظهيرة فيما بين الثانية عشرة والواحدة فى مناقشة حالات طريفة من التى تقابلهم ، وفى يـوم الخميس يخصصون اللقاء لمناقشة بعض المقالات المنشورة فى المجلات الطبية ويـدير هذه الاجتماعات فى حضور الأطباء الكبار الـدكتور باتريك وهو أحد الحائزين لـوظيفة مشارك اكلينيكى Clinical Associate و هو فى مقتبـل عمره ويتمتع هـذا الطبيب بقدرة فـائقة على الرذالة على زملائه شأن كاتب هذه السطور الذى يدعو الله سبحانه وتعالى أن يخلصه من عيوبه المتزايدة ، سـأضرب لك مثلاً واحداً على رذالته ، كان فى يوم الجمعة ينبه إلى وجود صـور من المقالات التى ستناقش الخميس القادم ، فإذا به يـرجو النـواب أن يقرأوا هـذه المقالات جيداً ثم يردف بـالقول أما الـذين يحضرون الخميس من دون أن يقـرأوهـا فإنـى أرجـو أن يأخـذوا غـذاءهم وينصرفوا قبل بدء مناقشة هذه المقالات !!

على هذا النحو تجد كل صبـاح قائمة بالكمبيوتـر تضم مالا يقل عن مائة وخمسين لقاء علمى تتم فى قاعات هذا المستشفى المختلفة فى الأوقات المختلفة وأمام كل لقـاء مكانه ومـوعده وعدد المفترض حضـورهم ، والسكرتيرة التى يستعلم منها عنه ، وبعض الملاحظـات عما إذا كان هناك شروط للحضور، فى حالة المحاضرات المرتبطة ببرامج التعليم الطبى المستمر أو برامج الدراسات لما بعد التخرج ، أو الدراسات المتعمدة .. إلخ

هذه نماذج سريعة تعطيك فكرة عن الأداء التعليمى فى هذا الصرح الطبى فإذا بهرتك بعد ذلك النتائج التى يخرج بها المرضى من زيارتهم فتذكر أن الهدف من الطب عموماً ليس علاج المريض فحسب ولكنه تقدم التعليم الطبى من أجل علاج هذا المريض فى المستقبل بصورة أمثل!!!

فإذا وجدتنى فى موضع آخر من كتاب آخر من كتبى مصمماً على أن أصبغ الطب كله فى مصر بصبغة تعليمية بحيث تنتمى كل مؤسسات العلاج الطبى وكل مؤسسات الرعاية فى مستوييها الثانى والثالث كله إلى مؤسسات التعليم الطبى طبقاً لنظام متكامل ومتدرج فاعلم أن جذور فكرتى القديمة قد لاقت غذاء فى هذا المستشفى .

ومن قال إن الطب الأمريكى بحاجة إلى أن يتقدم بخطوات واسعة أو حتى خطوات بطيئة ، إنما تتقدم اليوم التكنولوجيات التى تساند خطوات التقدم الطبى التى تحققت فيما مضى ، ويتقدم تطوير هذه التكنولوجيات وتسخيرها لخدمة أهداف التشخيص والعلاج والمتابعة .. تكون النتيجة أن الطب يتقدم ، ولكن الفن الذى فى الطب نفسه لا يصيبه شىء أبداً من التقدم، ربما تعجب بشدة لهذا الكلام ولكنك إذا كنت طبيباً أمريكياً وعاملت الأطباء الفرنسيين ووجدتهم مثلاً يغيرون الجرعة المعهودة فى العلاج لمجرد الإحساس بأن تقليل الهيبارين من ٦٠ ألف إلى ٣٠ ألف قد يعطى نفس النتيجة .. ربما تصيبك الدهشة القاتلة أن ترى الأطباء يفعلون هذا الشىء من دون أن تكون لديهم دراسات مطولة أثبتت بكل التحليلات الإحصائية صواب ظنهم. دعك من تغيير الجرعة وتعال إلى تطوير طريقة من الطرق الجراحية مثلاً كيف يدرسها الأمريكيون تفصيلاً وكيف تنتهى دراساتهم إلى أنها لاتمثل تحسناً يذكر إلا بنسبة ٥٪ . ثم إذا هم يتجرأون وينفذونها وتنجح .. بعد نجاحها يمارس الإعلام الأمريكى الخطير دوره الجهنمى، فنسبة نجاحها إلى ما قبلها كالسماء

إلى الارض ومخاطرها لا تتعدى ١/ وتحسيناتها تمثل ٩٥٪ من طموحات الأطباء فيما قبل .. وهكذا . نجاحات الطب فى أمريكا مزيج من تكنولوجيا دائبة البحث ، وإعلام ذى صوت عال.. وهذا المزيج قائم على مزيج آخر أخفى من أن تراه عيناك مباشرة : فالتكنولوجيا مزيج من بحث نظرى مستميت ومجموعة لا متناهية من قواعد معلومات لا تترك صغيرة ولا كبيرة.. والإعلام مزيج من دراسات علمية اجتماعية وإنسانية عميقة ، ولغة تجمع بين الدقة والتعبير فى قدرة عالية على المواءمة لا يستطيعها إلا من وصل إلى درجة الساحر الذى يبلع النار وهو يسير على السلك المشدود بقدم واحدة مصنوعة من خشب هش يذروه الرياح . وهأنذا الخص لك عوامل النجاح بطريقة ١ ـ ٢ فأعدد لك : ـ

□□ قواعد معلومات مجددة كل دقيقة ، متواصلة فيما بينها إلى أقصى الحدود، سهلة الاستخدام .

□□ دراسات علمية واجتماعية وإنسانية عميقة قادرة على مخاطبة الإنسان بكل ما فى الإنسان .

□□ استخدام سحرى للغة لايقل سرعتها فيدركها الزمن الذى لايتوقف .. هى تعرف سرعته ولهذا تخافه خوفاً محسوباً ولكنه يتزايد مع كل حين لأن الزمن نفسه يكتسب من التكنولوجيا أبعاداً هائلة .. فالتكنولوجيا تخلق من الزمن فرانكشتين يرعبها هى نفسها .. التكنولوجيا لابد أن تنتشر حتى تحقق العائد الكفيل بأن يجعلها تزدهر . وإنتشارها يصعب من ازدهارها ويجعلها مطالبة بتحقيق ازدهارات أكبر فى أوقات أقصر .

□□ إعلام لابد أن يكون قادراً على إدخال التكنولوجيا حتى ولو كان هذا على حساب تكنولوجيات أخرى كان هو نفسه المبشر بها !!

وهذه هى أمـريكا التى تظهر للطبيب تحت الميكروسكـوب فى أى مؤسسة طبية من مؤسساتها الناهضة.

هل تحدثنا ياسيدى عن بعض الميكروبات التى تحيط بهذه الصورة تحت الميكـروسكـوب للطب الأمـريكى ، نعم بـــوسعى أن أحـدثكم ولكنـه حـديث هواجس:

□□ ألمح هناك حقيقة ـ لا أرى ولكن ألمح ـ ضـجـراً متواصلاً من الإنفاق على كثير من البنود فى الرعاية الصحية بما لا يمثل مردوداً حقيقياً على صحة المواطن الأمريكى ولا على تقدم العلم.

□□ ألمح أيضـا بـوادر رغبـة على استحيـاء من النفس فى الخروج بـالطب الأمريكى كنشاط اقتصادى إلى ما وراء الأطلنطى .

□□ ألمح أيضا وبصعـوبة بـالغة رغبة فى إعـادة تقييم نظم التأمين الصحى المطبقة وخصوصاً مع التفاوت الرهيب فى تكاليفها وعوائدها ومردوداتها وضجر الأطباء من بعضـها وإحجامهم عن مواصلة العمل فيها.

□□ ألمح أخيراً خوفـاً من تزايد اعتماد أمـريكا على التكنولوجيـات الأوروبية واليابانية فى الأجهزة الطبية إلى أكثر من الاعتماد شبه الكلى القائم الآن . وفى ظل انتفاء أو تقلص الرغبات الأمريكية فى اقتحام هذه الأسواق !!

الفصل السابع

المسلمون فى أمريكا
طيف واسع من الألوان الجميلة

المسلمون فى أمريكا شأنهم شأن المسلمين فى كل مكان طيف واسع من الالوان الجميلة التى لكل منها حلاوته وروعته وجلاله . والاختلافات بينهم لاتعكس إلا حرص المسلمين على إعلاء كلمة الله وعلى إعطاء العقل مكانة فى ذات الوقت . قوة الحجة تجعلك إذا كنت منصفاً لا تميل إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء بقدر ما تكتشف فى نفسك تواضعها وميلها إلى القول بأنك لست بفقيه ولامفت. كل يعمل من منظور ما وهو يظن نفسه مقصراً فى حق دينه رغم كل إخلاصه لمنظوره . والإسلام الحقيقى يزدهر فى قلوبهم ويتنامى فى عقولهم ويتعمق فى أعمالهم ، وفى كل يوم ترتفع له راية جديدة إلى جانب راياته التى ارتفعت من قبل .. وطبيعة الدين السمح تقربهم من بعضهم ... وروح النظام الجميل فى الإسلام الجميل تتيح لهم اللقاء المنظم بدون تكلف ولا عناء سواء فى الصلوات أو فى رمضان الكريم ، شهر البركة والإحسان.

ومع هذا لابد من أن أحدثك من باب الرواية فقط عن بعض الاختلافات الجميلة .. فهذا إمام مسجد لا يمانع فى أن يأخذ المجتمع الإسلامى من البنك

قرضاً محدد الفائدة ليقيم التوسعات.. ولكن إمام مسجد المدينة المجاورة يرفض المبدأ من أصله.

هذا المركز الإسلامى الكبير فى لوس أنجليس لا يمانع فى تناول اللحوم المتاحة باعتبارها من طعام أهل الكتاب .. ولكن إمام مسجد ابن تيمية فى ذات المدينة يرى أنه لا مبرر لتناول هذه اللحوم مادام هناك جزار يذبح حسب الشريعة الإسلامية .

هذا المسجد يتيح لقاء الرجال بالنساء لأنه يريد للمجتمع الإسلامى أن يتعارف وأن تتقوى روابطه بالمصاهرة مثلاً .أما ذلك المسجد : فلا يتيح على الإطلاق أى اتصال بين الرجال والسيدات.

أعظم ما فى كل هذا أن المسجد دائماً يحمل لافتة المركز الإسلامى . أقصد أنه ليس هناك مركز إسلامى ليس بمسجد .. أرجو وادعو الله أن أشهد اليوم القريب أن تكون المدرسة هى الأخرى المركز الإسلامى .

من الطرائف التى حدثت لأحد زملائنا فى كليفيلاند أنه وهو سائر بسيارته فى أيامه الأولى فى شارع يوكليد وجد مبنى عليه لافتة مسجد القرآن Qurran Mosque سر صاحبنا سروراً عظيماً لهذا المبنى الجميل الأنيق وواجهاته الزجاجية وعزم على الصلاة فيه .. لكنه كلما أتى باباً وجده مغلقا ، وعليه لافته أن الدخول للأعضاء فقط ـ ومن وراء الأبواب الزجاجية لمح موائد وبارات عامرة بأنواع الكحوليات كلها وبلا حصر ولا عدد .. قال فى باله · ما علينا .. أمريكا فيها كل شىء . قد يكون مسجداً ونادياً فى ذات الوقت !! وفى النهاية وجد باباً مفتوحاً يخرج منه شخص ، تقدم إليه وساله أين باب الصلاة؟ من حسن الحظ أن هذا الشخص كان مثقفاً وعرف أن صاحبنا مسلم فأجابه أن

هذا ليس بمسجد، وإنما هو ناد من نوادى إحدى الجمعيات الماسونية اتخذت له هذا الاسم من قبيل الديكور ليس إلا .. وتطوع الرجل فأرشد صاحبنا إلى مسجد بلال أو المسجد الحقيقى كما قال له .

أول جمعة لى فى كليفيلاند صليتها فى مسجد جميل قرب الجامعة وميدان الجامعة هو مسجد عقبة بن نافع رضى الله عنه وأرضاه . عرفت أن الطلبة المسلمين فى جامعة كيس ويسترن هم الذين تولوا شراءه وتجهيزه كمسجد.

المسجد بسيط ولكنه كفيل بأداء كل وظائف المسجد والمركز الإسلامى ، المح كثيراً من المصريين بين الحاضرين وكذلك ألمح فلسطينيين وعراقيين وشوام .. بالإضافة إلى الأمريكيين .

السيارات تحيط بالمسجد فى شوارع جانبية كثيرة ، والإمام اليوم هو أحد التجار الفلسطينيين وهو صاحب الجزارة الإسلامية ، الخطبة باللغة العربية ثم بالانجليزية Brothers & Sisters .

الدعوة إلى الإفطار تتجدد وفى هذا الاسبوع أيام إضافية كذلك . بعد الصلاة التقى بكثيرين من طلاب بعثات منح السلام المصرية.

المسلمون الأمريكيون حريصون وهم يقودون سياراتهم بعد أداء الجمعة أن يبطئوا سيرهم ليلقوا علينا السلام هم وأسرهم كذلك.

شعور جميل وعظيم ينتاب المرء منا وهو يرى نفسه واحداً من جماعة تجمعها كلمة واحدة هى كلمة التوحيد ـــ تختلف الألوان والألسنة والمهن وتجتمع فى المسجد . تختلف المصالح والأغراض والوجهات وتجتمع مختلف السياسات والأوطان وتدور رحى الحروب هناك ونجتمع هنا .. ونحن نجتمع

فى كل حين لأن اللـه أراد لنا أن نكـون أمة واحـدة وستكون بإذنـه تعالى أمـة واحدة ، ويداً واحدة ، وإلى يوم الدين.

انتويت فى جمعة تالية أن أصلى فى مسجد بلال الذى فى شارع بوكليد ، أين هو بالتحديد ، لا أعرف كل ما أعرفه أنه على يمينك وأنت ذاهب إلى وسط البلد من المستشفى ، ما علينا نسأل سائقة الأتوبيس وبالتاكيد لن تعرف فيكون من الطبيعى عندئذ أن تقترح عليك حلاً ادفع التـذكرة واركب وتطلع إليه حتى إذا وجدته فـاهبط .. وهذا ما حدث بالفعل .. ووجدت مسجـد بلال رضى الله عنه وأرضاه ونزلت .

المسجد جميل جـداً وخلفه مساحة انتظار هـائلة وهى حافلـة والحمد لله بالسيارات ، المسجد مبنى بالخشـب الأوك الجميل وسقفه على هيئة شبه قبة جميلة بحيث تمتـد أذرع متناسقة مـن الخشب لتكون سقفاً يتـوسطه دائرة صغيرة جداً فيما عدا هذا فلا يتكـون من السقف سطح أبداً إنما هو جمالون جميل جداً .

والمسجد من طابقين : فى الدور الأرضى دورات المياة واستراحات وقاعات واسعة وفى الدور العلـوى ساحة الصلاة وهى مغلقة تماماً لابـد أن تفتح باباً حتى تـدخل إليها وفى هـذه الطرقـة التى تستقبلك بعد صعـودك السلم تجد حجرات للمكتبة وللإمام وللسكرتاريـة وتجد رفوفاً للأحذية .. ثم تفتح الباب المنزلق الذى سرعان ما يعود إلى الإقفال لتدخل إلى قاعة الصلاة.

وجـدت الأحـذيـة لا تتجـاوز سبعين فقلت فى سرى كأنهم هنـا أيضـاً لايلتزمون جميعـاً بتركها فى الخارج على الرفوف المعـدة.. فلما دخلت المسجد وجدت أن عدد المصلين والمصليات قليل بالفعل .. هذا أول مسجد أصادف فيه

المصلين فى مقدمة المسجد والمصليات فى المؤخرة بدون فاصل إلا المساحة الكبيرة الخالية من المصلين .

الخطيب يخطب بالإنجليزية مع حماس جميل يجعل الانجليزية تتسع لعبارات الوعظ الدينية القصيرة المكررة المؤكدة.

وحين أقيمت الصلاة أمنا شخص آخر استطاع قراءة الفاتحة بالعربية وفى الركعة الأولى قرأ قل هو الله أحد وفى الركعة الثانية قل أعوذ برب الناس... (كاننى انا الإمام) . لم أستعذب اللغة العربية يوماً كما استعذبتها وهى تخرج مكسرة تماماً من فم الشاب الذى أقام الصلاة ثم وهى تخرج ما بين التكسير والسلامة من فم هذا الشيخ الذى صلى بنا الجمعة.

أحسست بعد الصلاة كم نحن مقصرون فى حق هؤلاء .. إننا سعداء فى كثير من الاقطار الإسلامية بما نقدم لهم فى بعض الأحيان من فتات الأموال أو حتى الأموال الضخمة .. ولكننا نحرمهم أعظم شىء يربطهم بالإسلام وهو اللغة . لو بذلنا فى نشر اللغة العربية واحداً فى المائة مما تبذل فرنسا فى نشر اللغة الفرنسية إلى الحد الذى وصفه لى صديق دبلوماسى أوروبى بقوله «وإجبار الناس على تعلمها» أقول إننا لو بذلنا واحداً فى المائة من هذا الجهد فى تعليم اللغة العربية لهؤلاء الذين يستحقونها لصلحت دنيانا وصلح ديننا .

إن فرصاً لا تعد ولا تحصى متاحة ومفتوحة ومرحبة بنصف مليون خريج من الشباب للقيام بدورهم فى تعليم اللغة العربية للمجتمعات الإسلامية المنتشرة فى أمريكا وأوربا وأفريقيا وجنوب شرق آسيا .. كل ما هو مطلوب من هؤلاء أن يلموا باللغة الإنجليزية (أو غيرها) إلى الحد الذى يتيح لهم التعامل مع هذه المجتمعات من أجل الأخذ بيدها إلى تعليم اللغة العربية.

هذه المجتمعات ليست منظمة وليس أسهل من تعليم الصغار الذين يتوق أهلهم إلى أن يسمعوا القرآن الكريم باللغة العربية من أفواه أبنائهم .. سواء كان هؤلاء الأبناء لا يعرفون العربية أصلاً أو كانوا يعرفونها وشغلتهم الحياة الدنيا وزوجاتهم عن أن يجدوا وقتا يعلمون فيه أولادهم لغتهم الأولى ، كثيرون من الذين يقرأون هذا الكلام سيتأكدون من أنني أبالغ حين أقول نصف مليون ولكنني أخشى أن أقول إنني متواضع لأني لو ذكرت الرقم الحقيقي لكان أكثر من هذا بكثير .

تسألني بالطبع عن التمويل .. إن هذه المجتمعات قادرة على التمويل لأنه لا يكلف شيئاً .. هل توافقني على أن تتصور المسألة بشيء من التقريب .. هل ألف دولار كمرتب لهذا الخريج كافية ـ تجيبني بنعم ـ هل عشرة في المائة من مصروفات إدارية لتنظيم العملية كافية ـ تجيبني بنعم ـ هل عشرون في المائة كذلك لاستئجار أماكن . إذا لم يكن هناك مساجد أو جمعيات إسلامية أو جمعيات أخرى لتعطى الفرصة لاستغلال المكان الخاص بها في ساعات محددة أو لم ترحب السلطات الحكومية بإدراج هذه العملية ضمن البرامج الأساسية أو الإضافية في المدارس التي تضم عدداً كبيراً من هذه الجاليات مع أن معظم السلطات توافق على مثل هذا المبدأ من مبدأ احترامها لحقوق الإنسان، وحقوق الأقليات وحرية العقائد ومع أن الهيئات الشعبية المحلية بالطبع حريصة بحكم النظم الديمقراطية على تهيئة هذه الفرص.

هل تكفيك عشرون في المائة على سبيل الإجمالي كاحتياطي للحالات التي تحتاج تمويلاً لبند المكان تجيبني بنعم .. إذاً هل مبلغ لا يتعدى ألف دولار ونصف في الشهر يكفي لتعليم خمسين طفلاً أو قل أربعين يمثل مشكلة ؟؟

To: www.al-mostafa.com

فى أمريكا وحدها مالا يقل عن خمسمائة ألف مجتمع مسلم فى آلاف المدن الصغيرة وأحياء المدن الصغيرة (عدد المسلمين فى التقديرات المتوسطة حوالى ٦مليون مسلم) ينتظر هذه الفرصة لتكون هناك مدرسة ولو من مدارس الفصل الواحد فى أيام الآحاد لإنجاز هذا الأمل العظيم الذى نتطلع إليه جميعاً بدون أن نبذل فى سبيله إلا الجهود المتفرقة .

وأحب أن نفهم أن هذا المشروع كفيل بتطوير برامجه ومناهجه يوماً بعد يوم بحيث يصبح خير وسيلة لوجود اللغة العربية فى موقعها الصحيح .. وبحيث يغفر للمسلمين تقصير بعض دولهم الرائدة كالدولة العثمانية فى حق لغة القرآن . ومن الواضح أننى أتحدث عن اللغة العربية كلغة ثانية إلى جوار الإنجليزية وهذا لا ينفى بالطبع أننى أتمنى أن أعيش حتى أرى العربية هى اللغة الأولى لكل مسلم على وجه الأرض .

والأمر ياسيدى يستلزم حماساً تاماً لإتمام العمل من خلال منهج متصل معروفة حلقاته على مستوى العالم الإسلامى كله بحيث يقول الصغير فى اندونيسيا إنه وصل إلى الدرس السابع والثلاثين من الحلقة الثانية مثلاً فيجد نفسه عند انتقال والديه إلى أمريكا يواصل الدرس الثامن والثلاثين مباشرة ، وبحيث يستطيع وهو فى لوس أنجليس إكمال ما بدأه وهو فى نيويورك، وفى هذا المجال لابد أن أذكر أن أمريكا نفسها حتى اليوم لا تزال تعترف بعدة لغات أوروبية كلغة أولى :

فاللغة الاسبانية هى اللغة الأم لثمانية ملايين شخص أمريكى.

واللغة الالمانية هى اللغة الأولى لخمسة ملايين آخرين .

واللغة الإيطالية هى اللغة الأم لأربعة ملايين أخرى .

وأرجو أن يأتى اليوم الذى تحتل فيه العربية مكانتها اللائقة بها وبخاصة أنها اليوم هى اللغة الأولى الحقيقية لمئات الألوف من الأمريكيين المهاجرين. ولكن المشكلة التى أنبه إليها أنها تتراجع مع تعاقب الأجيال ربما إلى أن تصبح لغة أجنبية عند أبناء عرب مسلمين ولدوا فى المجتمع الأمريكى لأم أمريكية أو لأم عربية مسلمة يشغلها عملها عن أن تعلم أبناءها العربية فتتركهم يعاملونها بالإنجليزية وكأنها تعامل الخواجات !! وتبقى العربية بينها وبين زوجها فحسب!!

أعرف أن الأمر يحتاج إلى وقفة متأنية فى التخطيط الدقيق وإلى أن نبدأ بولاية أو إقليم على سبيل التجريب الرائد ويحتاج إلى كثير من التنظيم واحترام النظام الأمريكى والتوافق معه تماماً .. ويحتاج إلى كتاب جيد التأليف وجيد الطباعة وجيد الإخراج ويحتاج إلى شبه هيئات مركزية تتولى تنظيم بعض الأمور كتوزيع الكتب وتسكين المدرسين والحصول لهم على التأشيرات .. وكل هذا إذا عرفت الحياة الأمريكية من باب واسع وقوى ميسر بإذن الله .

أعرف أن العقبة الكبرى أمام مثل هذا المشروع هى مسألة التراث المتراكم من ادعاء الفضل وحب الحمد بما لا نفعل إلى حد العذاب وهو ما حذرنا منه القرآن الكريم ، والاحتمال الأكيد فى أن تتنازع الإشراف على المشروع هيئات مختلفة كالخارجية والأوقاف والتعليم والقوى العاملة والهجرة وكل المؤسسات التى تتبعها هيئات لا علاقة لها من قريب أو بعيد بمثل هذا المشروع .. ولكن لو كان الأمر بيدى لتركته للجيش كما يفعلون فى فرنسا حين يجعلون تعليم اللغة الفرنسية فى الخارج أحد البدائل للخدمة العسكرية الوطنية الإجبارية .. حتى نقل هؤلاء الشباب إلى الخارج اتركه للطائرات الحربية لو أمكن !! حتى لا تصرخ مصر للطيران من رزق وفير لا تتعب فى

الحصـول عليـه وهى مع ذلك تشكـوه كما تفعل فى مـواسم الحج وعـودة المدرسين!!

واحب أن أقـول إننى لا أحلم بمستقبل لا يتحقق أو غير قـابل للتحقيق ولكننى أتحدث عن ماض تأخـر وقوعـه فى ظل انشغالنا التام بأزمات كثيرة ابتلعت أوقاتنا وألهتنا عن مسئوليـات سوف يسألنا عنهـا ربنا يوم القيـامة فنحن نترك الخريجين بـلا عمل ثمان سنـوات ونترك أخـوة فى الإسـلام يتعطشون إلى من يعلمهم لغة القرآن فى ذات الوقت.

لم أنته من أحلامى هـذه إلا وكنت خارج قاعة الصـلاة أمام المكتبة فقلت لنفسى ادخل المكتبة لعلى أجد أملاً ، فإذا باليأس يقتلنى .. المكتبة مجموعة من كتب تصلح لأى مدرسة أمـريكية ليس إلا .. وعلى رف أو رفين فقط من المكتبة الكبيرة جداً تجد مجموعـة من المصاحف وصحيح البخارى وكتـاباً فى فلسفة توما الاكوينى .. كل هذا ما يمكنك أن تعتبره ذا عـلاقة ولو إلى حد بعيد بمكتبة فى معبد! .. وعلى المنضدة التى تتـوسط المكتبة تجد أعداداً من جريـدة آسيوية إسلاميـة إعلاميـة مصورة فاخـرة الطباعة والـورق . إذن فالطـريق إلى هنا معروف ولكنه لا يحمل ما ينبغى أن يحمله من زاد يبنى ضمائر المسلمين!!

أما أعـداد المسلمين فى أمريكا فتتضـارب حـولها الأرقام .. كما تتضـارب حـول أعدادهـم فى كل مكان ، وليس مـن شأن هذا الكتـاب أن يحلل لك هـذا التضارب لأن مـؤلفه لا يعهد فى اليـوم نفسه القـدرة على الزعم بالـوصول إلى الحقيقة فى أمر يحتـاج القول الفصل فيه كثيراً من الوقت والـدراسة، ومع هذا فإنه يمكن بوسائل كثيرة تقدير أن عدد المسلمين فى الولايات المتحدة الأمريكية لا يقل عن ستـة مـلايين شخص، على أنى مع هـذا أحب أن أشير إلى خمس موجـات للهجرة إلى أمـريكا: الأولى فيما بين ١٨٧٥ ، ١٩١٢ وفى هـذه الهجرة

جاء كثير من التجار وطلائع أدباء المهجر .الثانية فيما ١٩١٨ و ١٩٢٢ حيث تدفق مسلمو لبنان للعمل فى مصانع فورد للسيارات فى ولاية ميشجان .الثالثة فيما بين ١٩٣٠ و ١٩٣٨ فى فترة الكساد العالمى فى الثلاثينات .والرابعة فيما بين ١٩٤٧ ، ١٩٦٠ فيما بعد الحرب العالمية الثانية .والخامسة فيما بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ . ويقال مثلاً إن حوالى عشرين ألف مصرى فيما بعد ١٩٦٧ قد هاجروا إلى ولاية نيوجرسى وحدها .

ولاشك أن أمريكا تفيد من العقول المسلمة أكثر مما يفيد المجتمع الإسلامى .. لا تظننى أديباً مجازى اللفظ وأنا أكتب هذه العبارة .. ولكن تأمل معى ما يعنيه أن أعداد الأطباء الإيرانيين العاملين فى مدينة نيويورك وحدها يفوق كل الأطباء الإيرانيين العاملين فى إيران. دعك من إيران وتأمل الجانب الآخر من الخليج العربى الذى تصر الصحافة الأمريكية على تسميته بالخليج الفارسى حيث العراق .. تجد أن أكثر من ثمانين فى المائة من مبعوثى العراق إلى أمريكا لا يعودون إلى العراق بعد انتهاء بعثاتهم..

دع العراق وإيران واذهب إلى الباكستان حيث لايزال الناس هناك يتعلمون بالإنجليزية ويتخرجون من جامعات تدرس الإنجليزية تجد أنه ما أن تعلن نتيجة كل الطلبة حتى يكون أكثر من تسعين فى المائة من خريجى مدارس الطب واقفين أمام أبواب السفارتين الأمريكية والإنجليزية يبدأون كل المحاولات الكفيلة بالحصول على فرصة لقضاء النيابة فى هذه البلاد.

أنا لا أعرف هل كان الأمر يصبح كذلك فى مصر لو كنا ندرس الطب بالإنجليزية بدلاً من الفرانكوآراب .. ولكننى متأكد من أنه لن يصبح كذلك على الأقل فى هذا الجيل ، لأن معظم خريجى ما يسمى مدارس اللغات الانجليزية يعملون معنا فى مصر ولا يندفعون إلى هذا الذى يندفع إليه الباكستانيون بله

الباكستانيات .. لن أحدثك عن أهل الشام فانت تعرف حبهم جميعاً للمهجر، من أجل كل ما هو جميل فى المهجر ، وحرصهم على الوطن من أجل ما هو جميل فى الوطن ولكنى أحب أن أنتقل بك إلى هجرة الأيادى كما حدثتك عن هجرة العقول فلا تزال أمريكا بحاجة إلى كثير جداً من الأيادى . وللطبقات الفقيرة غير المتعلمة مكان أيضاً فى أمريكا: فى مزارع قصب السكر فى فلوريدا و فى نصب السياج حول مزارع المواشى والخيول فى تكساس . و فى جمع التفاح فى فرجينيا و حصاد الشمندر فى كولورادو و جنى القطن فى نيومكسيكو. وأعمال النظافة فى الفنادق الأمريكية.

ومع هذا كله فلازلت أرى أنه لابد من أن يشعر المسلمون فى كل مكان أن أمريكا ليست لغيرهم فقط ، ذلك أن العالم الجديد كله نعمة من الله للعالم القديم كله . فإذا كان ولابد من الحديث عن الحقوق التاريخية (على أساس أننا فى عام ١٩٩١ التالى لعام الحقوق التاريخية) حقوق الاكتشاف فإنه من الثابت أن المسلمين اكتشفوا العالم الجديد فى القرنين العاشر والثانى عشر الميلادى قبل كولمبس كما أن المسلمين السود دخلوا أمريكا منذ ١٥١٨ كمهاجرين لا كرقيق وقد أفاض فى تأصيل هذه المعانى جابر هاشم فى كتابه MY NATION الذى صدر عن المطبعة الإسلامية فى ١٩٨١.

ولابد أن نفهم أن ظلم المسلمين الأفارقة وإحضارهم كرقيق لم يحدث فى مطلع العالم الجديد وإنما بعد ذلك بقرن أو بقرنين وقد بلغ ذروته فى الفترة مابين ١٧١١ ـ ١٨١٠ على يد التجار البريطانيين والفرنسيين.

ليس هذا الكتاب مجالاً مستفيضاً لأحدثك فيه عن الدعاة إلى الإسلام وزعماء الحركات الإسلامية الحقيقية أو المسولة للعمل ضد الإسلام.. ولكنى أستطيع أن أدلك على مجموعة من الكتب تحدثك عن هؤلاء : فهناك كتاب

"المسلمون فى أوروبا وأمريكا" نشرته دار أزيس للتأليف والنشر والترجمة والنشر للأستاذ على المنتصر الكتانى ١٩٧٤ . وهناك كتاب «العرب فى المهجر الأمريكى» للأستاذ عامر إبراهيم القنديلجى ، نشرته وزارة الإعلام فى بغداد عام ١٩٧٧ . وهناك دراستان هامتان للأستاذ كمال كامل نمر الذى يشغل منصب المشرف التربوى فى الاكاديمية الإسلامية السعودية فى واشنطن : الأولى بعنوان أحوال المسلمين فى أمريكا تربوياً ، وقد نشرتها فى الدوحة عام ١٩٨٥ مؤسسة الشرق للعلاقات العامة للنشر والترجمة . والثانية تحمل عنوان "أضواء على أحوال خير أمة أخرجت للناس فى الولايات المتحدة الأمريكية» وقد نشرتها عام ١٩٨٦ دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع فى بيروت .. وهناك أيضاً كتاب «الجالية الفلسطينية فى الولايات المتحدة الأمريكية» لرياض مقصود (١٩٨٠) . وهناك كتاب هام يحمل عنوان «صورة العرب فى أمريكا» للدكتور عبد القادر أبو شريفة، نشر فى شيكاغو عام ١٩٨٥.

وفى فترة سابقة على هذه الفترات نشرت عدة دراسات وانطباعات هامة عن أمريكا لعل القراء يذكرون منها كتاب الأستاذ مصطفى أمين عن أمريكا (الذى أعيد طبعه مؤخراً فى القاهرة) وكتاب الأستاذ سيد قطب الشهير ، وأذكر بهذه المناسبة أننى التقيت فى مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة حوالى عام خمسة وثمانين بأستاذة أمريكية كانت تبحث عن الحلقات الأصلية التى نشرها سيد قطب عن زيارته لأمريكا قبل أن يجمعها فى كتاب.. يبدو والله أعلم أن حرص الدارسات الأكاديمية الأمريكية بلغ الحد الذى جعلهم يقارنون الحلقات الأصلية بما جمع كتب ليروا ما قد يكون سيد قطب قد حرص (افتراضياً) على تعديله فيما بين النشرين!! وقد نشرت عن هذا الكتاب دراسات كثيرة منها

كتاب «أمـريكا من الـداخل بمنظار سيد قطب» لصـلاح عبد الفتـاح الخالدى نشرته دار المنارة للنشر والتوزيع فى ١٩٨٥ .

ليس هـذا الكتـاب مجالاً لتحليل أو تلخيص هـذه الكتب وإن كنت أود أن أتمكن من ذلك عن قريـب بعون الله ولكنى لا أستطيع أن اترك هـذا الموضـوع دون أن آخـذ على الـدكتـور كمال نمر تحاملـه على « ولاس محمـد . والهيئـة الإسلامية الأمريكية » فعلى الرغم من أن الدكتور نمر يشـهد لولاس محمد بأنه قام بإصلاحـات جذرية فى عقيدة جماعته ، وأنـه بادر إلى تغيير اسم الجماعة من أمة الإســلام أو البلاليين إلى الهيئـة الإسلامية الأمـريكية . The American Muslim Mission و « أنه أعلنها صريحة مدوية فى مؤتمر رابطة العالم الإسلامى سنة ١٩٧٧ فى مدينة نيو آرك أنه هو وأتبـاعه جميعاً يشـهدون منذ اليوم أنهم مسلمون سنيون يتبعون القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وطالب أتباعه بالصلاة والصيام والحج».

وعلى الرغم من شـهادة الدكتور كمال نمـر لهم بالقوة والنشاط ، فعددهم يربو على مليون عضـو ولهم إذاعة تنقل دعـوتهم لاعضاء الجماعة وللآخرين ولهم ١٥٦ مسـجداً فى ٣٩ ولاية وفى العاصمة واشنطن» .

على الرغم مـن ذلك إلا أن الدكتور كمال نمـر شأنه شأن كـل الاكاديميين يتحفظ فيردف كل ذلك الخير بقوله إن هناك من ينظـر إلى هذه الجماعة نظرة ريبـة وتوجس معتبراً أنهم منبثقين عن القـاديانيـة وهى جماعـة مرتـدة عن الإسلام .. ولك ياسيـدى الدكتور نمر أن تتحفظ ولكن أن يكـون تحفظك هذا صادراً أو مؤيداً فحسب بعبـارات الأستاذ الكتانى كما نقلت فأمر لا نستطيع أن نقرك عليه لأن الكتانى نشر رأيه فى ١٩٧٤ وأنت بنفسك الدكتور كامل نمر الذى تنبهنا إلى مـا أعلنه ولاس محمد (صريحة مدويـة فى عام ١٩٧٧) .. إذن

كان لابد ياسيدى وأنت تملك أداة البحث العلمى الحق أن تدلنا على رأيك حتى لو كان متحفظاً.. أما أن تورد رأياً مخالفاً لرأى لتعقب على الرأى الأول فحسب فأسلوب لا بأس به فى البحوث الأكاديمية ليظهر ما نسميه بالموضوعية ، أو لينبىء عن كثرة مطالعتك للمصادر المختلفة متضاربة الآراء . ولكنه يصبح قاصراً فى كتب من شأنها أن تحدث المسلمين عن عقائد المسلمين وتطورات هذه العقائد .

بقى أن اتحدث عن انطباعاتى عن الدعوة والدعاة وأكون مخطئاً إذا زعمت لك أن فى وسعى أن اتناول هذا الحديث باستفاضة أو فهم عميق ، ولكنى مع ذلك أحب أن اذكر لك انطباعى أن الإسلام فى أمريكا لا يحتاج إلى دعاة من أولئك الذين يرون أنهم غير ملزمين بتعلم اللغة الإنجليزية لأن القرآن نزل بلسان عربى ولأن لسان أهل الجنة عربى ، أو أولئك الذين يجدون كراهة فى تناول طعامهم بالشوكة .. أما المؤسسات التى تنظم عمل أولئك الدعاة فينبغى أن تكون أبعد ما تكون عن الولاء القومى !! طبعاً من الغريب أن تقرأ ياسيدى القارىء عبارة مثل هذه التى صدمتك بها لتوى ! ولكن هذه هى الحقيقة التى لابد أن نعرفها ، فالدعوة لوجه الله والولاء لدعوته ودينه ينبغى أن يكون الهدف الأول والوحيد لكل مؤسسة تعمل من أجل دعوة التوحيد .. فيما عدا ذلك فإن الولاء القومى والحزبى كفيلان بتحويل الأئمة إلى كُتّاب تقارير ، والدعاة إلى موزعى منشورات حتى وإن كانت هذه المنشورات كتباً .

ومع أن طريق الدعوة الإسلامية فى المهجر محفوف بكثير من المصاعب والمخاطر فإنى لا أشك لحظة واحدة فى أنه سوف يلاقى نتائج طيبة ربما بأكثر مما يتوقع العاملون فيه .

كتب للمؤلف

١ ـ الدكتور محمد كامل حسين عالماً ومفكراً وأديباً ،
(الكتاب الفائز بجائزة مجمع اللغة العربية الأولى فى الأدب العربى عام ١٩٧٨) .
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

٢ ـ مشرّفة بين الذرة والذروة،
[نال عنه المؤلف جائزة الدولة التشجيعية فى أدب التراجم عام ١٩٨٢] .
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٨٠

٣ ـ كلمات القرآن التى لا نستعملها (دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظية) ،
دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٤ ـ يرحمهم الله (كلمات فى تأبين بعض الشخصيات)
دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤

٥ ـ من بين سطور حياتنا الأدبية (دراسات أدبية)
دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٦ ـ الدكتور أحمد زكى ، حياته ، وفكره ، وأدبه .
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٧ ـ مايسترو العبور المشير أحمد اسماعيل،
دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٨ ـ سماء العسكرية المصرية الشهيد عبد المنعم رياض،
دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، ١٩٨٤ .

٩ ـ **الدكتور على باشا إبراهيم** ، سلسلة أعلام العرب ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ،١٩٨٥ .

١٠ ـ **الحلول الجزئية هى الأجدى أحيانا .. مستقبلنا فى مصر** ،
دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٥ .

١١ ـ **التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة** ،
الهيئة العامة للاستعلامات ، القاهرة ،١٩٨٦ .

١٢ ـ **الدكتور سليمان عزمى** ، سلسلة أعلام العرب ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦

١٣ـ **الدكتور نجيب محفوظ** ، سلسلة أعلام العرب ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ .

١٤ـ **دليل الخبرات الطبية القومية** مع مقدمة وافية عن تاريخ وحاضر مؤسسات التعليم الطبى المصرية ،
مركز الإعلام والنشر الطبى ، الجمعية المصرية للأطباء الشبان ، ١٩٨٧ .

١٥ ـ **الصحة والطب والعلاج فى مصر** ،
جامعة الزقازيق ، ١٩٨٧ .

١٦ـ **توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية** ، المكتبة الثقافية ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨ .

١٧ ـ **رحلات شاب مسلم** ،
دار الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٩

١٨ـ**البيليوجرافيا القومية للطب المصرى** ، الجزء الأول والثانى ١٩٨٩ ،
الجزء الثالث والرابع ١٩٩٠ ، الاجزاء من الخامس وحتى الثامن ١٩٩١ .
الأكاديمية الطبية العسكرية ، وزارة الدفاع ، القاهرة .

١٩ـ**منهج ادباء التنوير فى كتابة تاريخ الأمة الإسلامية** ،
رابطة الجامعات الإسلامية ، الرباط ، ١٩٩٠ .
الطبعة الثانية **أدباء التنوير والتاريخ الإسلامى** ، دار الشروق، ١٩٩٤

٢٠ ـ مجلة الثقافة [١٩٣٩ ـ ١٩٥٢] : تعريف وفهرسة وتوثيق ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ .

٢١ ـ شمس الأصيل فى أمريكا (من أدب الرحلات) ،
دار الشروق ، ١٩٩٤ .

٢٢ ـ أوراق القلب (رسائل وجدانية) ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

٢٣ ـ مذكرات وزراء الثورة [دراسة تشريحية تاريخية نقدية لعشر مذكرات سياسية] .
دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

٢٤ ـ المحافظون (قوائم كاملة ، وفهارس تفصيلية وأبجدية ، ودراسة لتسلسل وتطور اختيار المحافظين منذ بدء الإدارة المحلية فى ١٩٦٠ وحتى الآن) ،
دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

المحتويات

مقدمة ٥

الفصل الأول : هل تغيرت أمريكا ٩

الفصل الثانـــي : أمريكا تستعيد أم تستعير روح العصر ٤٣

الفصل الثالـــث كليفيلاند : المدينة والمجتمع ٥٩

الفصل الرابـــع . فى بيت عائلة أمريكية ٧٣

الفصل الخامـس كليفيلاند كلينك : المكانة والمكان ٩٣

الفصل السادس : فى قسم القلب بكليفيلاند ١١٧

الفصل السابـع : المسلمون فى أمريكا طيف واسع من الألوان الجميلة ١٤٣

كتب للمؤلـف ١٥٧

المحتويات ١٦٠

رقم الإيداع ١١٣٤٨ / ٩٤

I.S.B.N 977 - 09 - 0255- 1

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع حوذ حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس ٣٩٣٤٨١٤

بيروت ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

شمس الأصيل في أمريكا

د . محمد محمد الجوادى

« وانا أعرف ان مهمتى فى كتابة رحلاتى شاقة عسيرة لانى لا اصف الطبيعة كما فعل الذين سبقونى .. ولكنى احاول ان اصف الحضارة ، ووصف الطبيعة لايستلزم إلا الحاسة الصادقة .. اما وصف الحضارة فيستلزم مع هذه اقداراً متنامية من الدقة والإحاطة والتعمق والفهم والترتيب .. ويستلزم قبل ذلك ان تكون جندياً من جنود الحضارة لافارساً من فرسان الطبيعة ، ان تكون جندياً قارب نيل الشاهدة واثخنته الحضارة بآثار عمله من اجلها قبل ان تكون فارساً أعطته الطبيعة بقدر ما استمتع بها »

To: www.al-mostafa.com